

عنرفُ على الورق

تأليف : صادق ناظم السباعي

طبعة إلكترونية ٢٠٢٢

www.noor-book.com

الغلاف : كيرستن هاندلن

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

واتساب المؤلف +963 937 889489

*** * مقدّمة * ***

بعد تخطّي الأربعين ، ساورتني رغبة الكتابة ، فرُحت أخطّ ، على مرّ الأيام ، ما يهيج
في نفسي من مشاعر، وما تُرجّعه الأحداث فيها من صدى ..
وإذ شارفتُ السبعين .. رأيت أن أضمّ كتاباتي في عزف من ثلاث حركات :

[قصص] [سوانح]

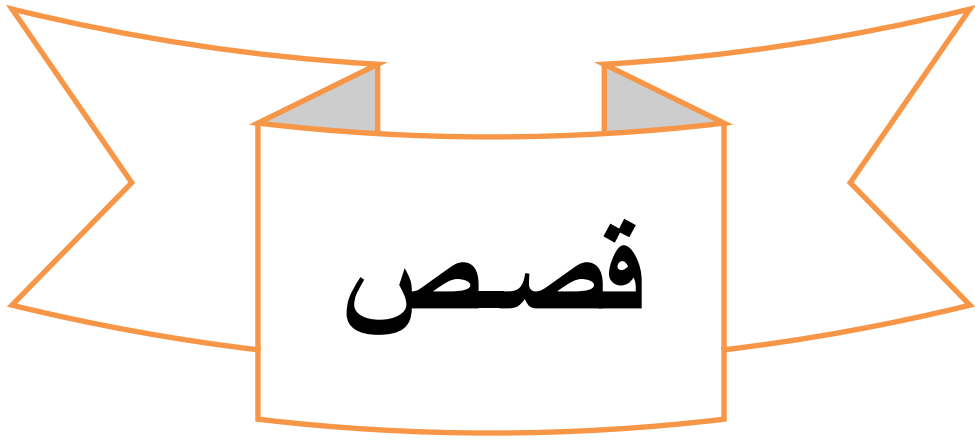
[خواطر]

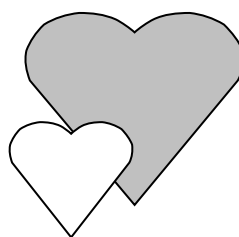
**** إهداء ****

* لِنَاظِمِي ..

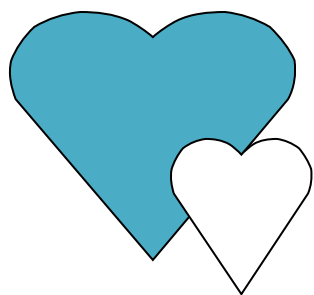
* لِذِيْمَتِي ..

* لِهَمْسَتِي ..





.. وَرْدَة



كان على عتبة خريف العمر، رجلٌ محبٌ للطبيعة في جلال سكونها، اعتاد ارتياد ربوة قرب منزله النائي عن المدينة، والجلوسَ عند سفحها ساعة المغيب، يتأمل أشجاراً باسقات، وزهرات ناضرات تmissible مع الأنسام، يرسل نظره في المدى، فتسرح نفسه نشوانةً تغمرها السكينة .. نافضاً عنه عناء عمله خلال النهار .

ذات يوم وهو في جلسته تلك، رآها لأول مرة مشرئبةً من بين جاراتها ، تتأود أمامه كأنها تدعوه إليها ! بُهر بحسنها ، نهض ومشى إليها يروم رؤيتها عن كثب. وإذا هي وردة حباها الله بتكوين وتلوين فريدين ، فجاءت آية من آياته. لَمَّ الرجل أوراقها الرقيقة بكتلتا راحتيه حاذراً تأذيها، وأحنى عليها ينهل من شذاها، وفيما كان يمعن النظر إليها وهو يُسبِّح المصوّر المبدع.. إذا صوتٌ رقيقٌ عذب .. ينسِمُ في سمعه :

- أتهيا لك كل يوم لعلك تراني ، وأظُلُّ أتملّاك في جلستك ساهماً ، متأملاً ، فأدعو الله كي تلمحني عيناك، وأنت غافل عني ! حمداً لله أن تنبّهت لوجودي ، ونلتُ إعجابك.

- واخجلتاه لغفلتي عنك طيلة تلك الأيام . أتحمدن الله أن نلتُ إعجابي ! أيمن إنسان ألا يُفتن بجمالك الساحر، وشذاك الأسر..! أسفي على كل يوم فات وأنا عنك غافل .

- إطراؤك الغامر أسعدني أيها الرجل الحبيب ، واعلم أن لك في نفسي منزلةً ما استحقها غيرك ، وما كان جديراً بها سواك .. فأليك سرّي :
أكرمني الله بمقدرة ليست في سائر بنات جنسي ، أبذل لوني ، أغير شكلي ، أتكيف بعطري ، أحبه ، أنثره ، أجعله طيباً زكياً ، أو وحّازاً جارحاً .. وإلا ما كنت الآن تراني. كُثُرُ هُم الذين يمرّون بي ، فلو لم يُنعم الله عليّ بهذه المقدرة ، لكانت يدٌ قد قطفنتي منذ زمن ، لكن يوماً لا بدّ من يدٍ ستقطفني ، لن تُجديّ مقدرتي في درء تلك اليد عني .. فلم لا تكون يدك..!؟

بُهِت الرجل بما سمع وقال :

- ידי ؟! أخشى أن تتأذي يا وردة .. نفسي لا تطاوعني .
- ليس من يدٍ ستكون أحنّ من يدك .. هيّا اقطفني وازرعني على وسادتك ، أطيّب ليلك، وأزيّن نهارك .. هيّا .. أنا لك .. خذني .. لا أريد أن أكون لسواك ..

فكّر الرجل .. مدّ يده ، ثم أحجم . فاستحثّه الصوت الرقيق :
- هلمّ هيّا .. اقطفني كيفما بدا لك .. من عنقي ، من ساقِي ، من جذوري .. هيّا ..

هاله الأمر فقال :

- اعذريني أيتها الوردة .. لن أقوى على ذلك .. لن أقوى ..
- هي مشيئتي .. أتضنّ بها عليّ؟!!
- لعليّ أن ألبّيها في الغد ، فهلاً أمهلّتي ؟
- أتعدّني ؟
- أعدك .. ألقاك غداً يا وردة.

أطرق الرجل مفكراً ، وغادر الوردة مأخوذاً مذهولاً. رقد تلك الليلة في فراشه
يتفكر في أمر تلك الوردة العجيبة .. أريجها مايزال يسكره ، وصورتها الخلابة لا تبحر
مخيلته .. حتى غلبه النعاس .

أشرقت ذُكاء في صبيحة اليوم التالي ، وأطلّت عليه من خلال نافذة غرفته تبغي
إيقاظه .. لعله أن يصبّح على الوردة قبيل ذهابه إلى عمله ، فيراها على نحو أبهى وقد
استحمت بندى الفجر وازيّنت بشعاعاتها الذهبية توشّي ألوانها الفريدة . كان ثمة ودّ حميم
يشدّ ذُكاء إلى الوردة إياها دون الوردات الأخريات ! وما خاب ظن ذُكاء ! ما إن استيقظ
الرجل حتى برقت الوردة في مخيلته ، واستحلى أن يستهل نهاره بمرآها وتنسّم عبيرها
المسكر ، قبيل توجهه إلى عمله. أنعش جسده بحمّام بارد ، وجملّ ما وسعه من هيئته ..
فازداد وجهه وسامةً وإشراقاً .. ويمّم شطر الوردة. اعتلى الربوة ، وأرسل نظره إليها
من بعيد. رآها بين جاراتها يُطوّقنها ، وهي تتمايل بينهنّ كأنها طربة سكرى .. تابع
خطواته نحوها ، ما إن لمحته حتى جمّدت في مكانها ، دهشةً من قدومه المفاجئ .
كالومض تلوّت وانتصبت ، تفتّحت على أبهى صورها ، وأشرقت بأزهى ألوانها ..
وسرعان ما ضوّعت في المكان عطرها ينفذ إلى صدر زائرها مع النسائم النديّة لذيّاك
الصباح الجميل . أسرع بخطواته نحوها ، انحنى عليها يتنشقها ، مطوّقاً إياها براحتيه ،
هامساً لها بنشوة ما أحسّها من قبل :

- صباح الخير والجمال يا مليكة الورود
- عمت صباحاً أيها الرجل الحبيب .. يا لها من مفاجأة سارة مننّت بها عليّ ، لطالما
تُفّئتُ إلى زيارة صباحية منك ، مجيئك هذا يوقد فيّ رغبة شديدة في الغناء!.. هلاً
جلست بقربي فأغنّي لك .
- بكل سرور وامتنان يا وردة

جلس بجوارها ناظراً إليها ، متلهفاً لسماعها. مالت على كتفه وأنشأت تغني .
غنت ألحاناً - ذابت لها مشاعره ، وكلمات اختلجت لها نفسه - بصوت تهادى إلى سمعه
عذباً شجياً حنوناً. تمت أن ينام وهي تغني ليبقى إلى جانبها ، تديم النظر إلى محياها ،
إشباعاً لتوق روحها إلى روحه .. إذ إن إحساساً ساورها تلك اللحظة بأنها لن تراه بعد
اليوم ! غفا الرجل قرب ساقها سوية ، مستغرقاً في حلم جميل ..
استيقظ من غفوته ، ودُكَّاء في كبد السماء ، فرك عينيه يروم رؤية وردته ، لكنها لم تكن
هناك ! صُعِق ! هبّ واقفاً مذعوراً ، تلقت حواليه ، أجال بعينه قريباً وبعيداً ، لكنه لم
يرها. نظر إلى جاراتها مستفسراً .. فما كان منهم سوى الصمت ، حزاني واجماتٍ في
أمكنتهن .

أطرق برأسه محزوناً يعتصره الألم .. وإذا بعينه تلمحان منبتها الصغير عند
قدميه ، وبقايا من جذورها الطرية مازالت فيه. ركع وأكب عليها يتحسسها باكياً. همت
دموعه غزيرة ، وقضى يومه إلى جانب أطلال وردته ، ناسياً عمله ، حتى آذنت ذكاء
بالمغيب وهي ترقبه حزينه وجيعة. جرّ قدميه عائداً إلى منزله ، مغتماً منقبض الفؤاد ،
وبات ليلته ساهراً محسوراً ، حتى لاحت خيوط الفجر .

انقضت أيام وشهور، مرّ ربيع وأتى ربيع ، والرجل مواظب على زيارة منبت
وردته الذي جهد كي يبقيه دون زوال ، ينظر إليه طويلاً كل يوم ، يتحسسه بيده ، لعلها
أن تبرغ من جديد !

لم تنسبه الأيام حزنه ، بل كان ألمه يزيد ، وأمله بعودة وردته .. حبيبة روحه ..
يزوي ، إلى أن فاضت روحه وهو مستلقٍ على أطلالٍ تلاشت رغماً عنه. وفي أثناء
ارتقاء روحه إلى بارئها ، لمحت من بعيد الوردة وهي بكامل رونقها وبهائها .. كانت
على شرفة منزلٍ جميل ، ويدُ رجل حنونة تُعنى بها .. !

انسرت الروح راضية .. وتابعت إلى رحاب بارئها صاعدة .

(شتاء عام ١٩٩٤)

* * * *



قُبُلَات اليَاسْمِينِ..

(١)

في صبح ربيعي مشرق من أصباح مدينة حلب ، عام خمسة وأربعين وتسعمئة وألف ، رشف أمجد - ذو التسعة عشر ربيعاً - من قهوته الصباحية ، واقفاً أمام نافذة غرفته ، يستنشي أنساماً صباحية نديّة ، محمّلة بأريج الياسمين الفوّاح من حديقة داره . كان متأنقاً في لباسه ، متهيئاً للخروج ليلتحق بعمله موظفاً في دائرة حكومية ، بعد أن كان من أوائل الناجحين في مسابقة أجرتها . وإذا بسحاب يظلّل الأرض ويسكب عليها مطره مدراراً ، ثم ينقشع ليتركها للشمس تغمرها ، فيتضوّع منها عبق التراب والحشائش المنبسطة حصائر خضراً تغطي مساحات بين بضع أبنية في الحي ، مأهولة بمن دُعوا آنذاك بصفوة الأسر .

ينتشي أمجد بتلك الرائحة المنعشة تنفذ إلى صدره نفحات مطيِّبة بعبق الرياحين، تهبّ من حدائق وشرفات الدور المجاورة، فتُسكِّرُه .. وهو في نشوته تلك، إذا بصبيّة جميلة القدّ، تهرول بغنج، لتلج مدخل عمارة على الطرف المقابل لنافذته، فتساءل: من تُراها تكون.. هذه الهيفاء..! نظر إلى ساعته ، فكان عليه أن يسرع لتسلّم مهام عمله الجديد. ودّع شقيقته وشقيقه اللذين يكبران سنّاً، وغادر الدار مغتبطاً ، وصورة الصبيّة الغنوج تداعب خاطره ..

ساعة أوبته من عمله، لمحها تسقي الزهر على شرفة في الطابق الثالث من تلك العمارة. استقصى أمرها بمسعى من شقيقته، فعرف أنها فتاة لبنانية، تدعى دوموازيل ايّفا، باشرت عملها منذ أيام ثلاثة ، ممرّضة مقيمة لدى جيرانهم ، تُعنى بصحة جدّهم ، ومتابعة دروس حفيديه ، وأنها ذات ثقافة فرنسيّة الصبغة .

مضت أيام ، كثيراً ما رأى فيها أمجد الصبيّة على الشرفة ، وكثيراً ما ترقب رؤيتها ، ومراراً ما التقت عيونهما وهما عابرين في الحي ، أو وهو واقف عند باب حديقة داره . كم تمنى أن تتمكن نظراته الرزينة إليها من إيصال ما تحمله في طيّاتها ، إذ إنه لم يكن يقرأ في عينيها - إذا ما وقعت على عينيّه - ما يوحي بشيء. وكان يشعر بالغيط إذا ما مرّت بقربه متجاهلة إياه وهو الشاب المغترّ بوسامته..!

ذات يوم ، شاهدها من نافذته ، تُخرج بضع رسائل من علبة بريد على جدار مدخل عمارتها، فطفرت له فكرة الكتابة إليها عن طريق صندوق البريد، آملاً أن تكون عادة فتحها منوطة بها. ولإلمامه بالفرنسية من خلال دراسته وتحديثه مع بعض أبناء ضباط فرنسيين يقطنون دوراً مجاورة لداره، فقد انتوى الكتابة بها لعلها أن تكون أوقع

في نفس الفتاة ، سيّما أنه استشف فيها نزوعها إلى التفرنج .
تحيّن ألا يكون أحد يراه ، وأودع الرسالة في الصندوق ، وقد جاء فيها ما ترجمته :

« الآنسة ايّفا المحترمة .. أرجو أن تغفري لي جرأتي في الكتابة إليك دون سابق معرفة بيننا ، لكنني رأيت أن لا بد من ذلك ، لأعرب لك عن شديد إعجابي ، ورغبتني الملحة في التعرف إليك .
ما إن أراك سأبادرك بالتحية ، فإن رددتها، سيسعدني ذلك جداً ، وأعلم أنك لا تمانعين تعارفنا ، وإلا .. فيا لخبيثتي .. ويا لألمي .. جارك الشغوف بك » .

ما إن أنتمت ايّفا قراءة الأسطر حتى عرفت، بحدسها، أنها من الفتى الوسيم صاحب النظرات النائمة عن اهتمامه بها .
سُرّت ايّفا بمبادرة الفتى ، وبأن صداقة وشيكة تنتظرها في بلد ليس لها فيها من صديق .
انقضى يومان دون أن تُلقِي الصدفة أحدهما في طريق الآخر - وكلاهما تَوّاق للّلحظة المنتظرة ، حتى كانت فرصة سانحة بادر فيها أمجد بإلقاء تحيته :

- بون جور مدموازيل ..
- بون جور .. !
- لكم أنا سعيد باستجابتك ..

وإذا بصوتها يتهادى إلى سمعه ناعماً حلواً وهي تقول :

- غريب ما تقول ! استجابتي لأي شيء؟
- ألم تتلقي رسالتي ؟!
- أيّ رسالة ؟!

ارتبك أمجد، واضطر أن يشرح لها الأمر ، فقاطعته :

- لا تخف .. الرسالة بحوزتي ، وقد رددت التحية بحسب مشيئتك .
- إذاً ، أنكون صديقين ؟ دوموازيل ايّفا
- أراك على علم باسمي !
- وبغير اسمك أيضاً ..
- ما اسمك ؟
- أمجد

- ما الذي تعرفه عني يا أمجد ؟
- هل لنا بالجلوس في حديقة دارنا ، فأطلعك عمّا أعرفه عنك ..
- إن لدقائق، فلا بأس ..
- تفضلي ..
- ياسمينتكم دَغلة فَوّاحة !..
- سأقطف لك حفنة منها ..
- لا.. يكفيني استنشاق عبيرها، وإمتاع ناظري بزهراتها مكتظة بين وريقاتها ..
- غَيّبت وجهها بين الياسمين ، تستنشي رائحته الزكية ، فيما أمجد كان يتأمل شعرها
الكستنائي المتموج اللّماع ، منسدلاً على بشرة بيضاء صافية .
تنحّت عن الياسمين ترفّ أهداب عينيها نشوانة :
- يا لعبيره ..
- عبير شعرك أطيب وأزكى ..
- أطرقت في استحياء ، وقد تورّدت وجنتاها ، وقالت :
- إذن كنت منشغلاً بشعري ، بينما كنت مأخوذة بالياسمين ..
- بل هائماً فيه .. يا لجماله ..
- زاد إطرأؤه من استحيائها ، فجلست على حافة بركة الحديقة تداعب الماء بيدها ،
مدارية ارتباكاً ألمّ بها من مغازلته .
- أخبرها كيف رآها وأعجب بها، وبما عرفه عنها بمسعى من شقيقته.. وفيما كانت
تصرح له بأنها انجذبت إليه منذ أيام ، وهي ترقبه يحادث شخصاً أمام داره .. إذا بأمجد
ينتبه لوجود شقيقته تنظر إليهما من خلف نافذة للدار، فيشير إليها بيده معرّفاً ايّفاً بها ،
ويطلب منها مشاركتها الجلوس مع قهوة من صنع يديها .
- إنها أختي رضيّة ، تكبرني بثلاثة عشر عاماً ، متزوجة ، وهي بمثابة أمّ لي ولأخ
موظف يكبرني بعامين وآخر يكبرني بأربعة أعوام يتابع دراسته الحقوقية بمصر ،
ولنا أخت متزوجة تصغرها بخمسة أعوام . بقينا في هذه الدار بعد وفاة والدينا ، وهي
ترعانا، في هدوء وونام ، فهي تزورنا كل بضعة أيام .. ها هي قادمة .
ترحب رضيّة بايّا ترحيباً لائقاً ، ويحتسون القهوة فيما هم يتجاذبون أطراف الحديث .
تروق القهوة لايّفا فتلفتت إلى رضيّة مطرية :

- قهوتك طيبة لذينة يا رضية خانم
- يسعدني أنها أعجبتك

يُردف أمجد :

- إن لأختي صبراً عجيباً على غليها بأناة، وهي فنانة ماهرة من الطراز الأول في تدبير المنزل ..

تقاطعه رضية :

- إنه يبالغ ..
- لا أظنه يبالغ ، فكل شيء هنا يوحى بما يقول ، وقد حدثني عنك وعن مكانتك الجليلة في نفسه .
- هذا من لطفك دموازيل .

تُعرب ايّفا عن سرورها بالتعارف ، وتشكر لرضية ضيافتها ، وتستأذن لتغادر.
ما إن غابت حتى التفتت رضية إلى أمجد :

- قل لي ، كيف دعوتها وما هي بغيتك منها ؟ ظننت سؤالك عنها لا يتعدى دافع الفضول ، وإذا بي اليوم أراها عندك !
- لا يشطنّ خيالك بعيداً يا أختي ، لا بدّ وأنك لمست دماثة خلقها ولطف معشرها، وهي إذ تشعر بالوحدة بعيدة عن أهلها، أثمة ما يضير في أن نكون صديقين !
- لا أظنك بغافل عما يضير، وأرجو ألا توطّد معرفتك بها تحاشياً لما لا تحمد عقباه .
- لا ينشغلنّ بالك أختي .. أرجو أن تثقي بي ، وأن لا تمناعي صداقتنا
- لن أسترسل في مناقشتك لأنني لن أفلح في ثنيك عما تعترم القيام به
- لا تقلقي أختي .. كوني مطمئنة .. هلاً أريتنّي ابتسامتك الحلوة
- سأفلق يا أمجد ، ولن ترى ابتسامتي مادمت على علاقة بهذه الفتاة .

تترك رضية أمجد، لتعود إلى ما كانت منشغلة به داخل المنزل .

على الرغم من أن أمجد كان دائم الحرص على عدم مخالفة رغبات أخته ، إلا أنه لم يتمكن من ألا يُزعج لرغبته الملحة في الصداقة المنشودة.

مساء اليوم التالي، وقد خيم السكون على الحي الوداع، جلس أمجد قرب بركة الدار يقرأ كتاباً على ضوء مصباح واهن ، وصوت نافورة تلغو. وإذا بحفيف أوراق

شجرة الليمون - المائلة عبر سور الحديقة نحو الشارع - يُنبّه سمعه، فظنّه جرّاء مرور قطّة على سور الحديقة ، فلم يكثرث. عاد الحفيف ثانية ، فرفع رأسه ليتبين الأمر، فيما الحفيف راح يشتدّ ! نهض مقترباً من الشجرة ليستكشف الأمر، وإذا بضحكة رنانة تنفلت من ايّفا التي كانت ترقبه محرّكة الأغصان بيدها.

- إذاً هي أنت !
- نعم أنا ، وآسف لتعطيلي قراءتك
- لا داعي للأسف ، أنا جدّ سعيد بهذه المفاجأة .. هلمّي ادخلي

دخلت الحديقة وراحت تنظر حولها مأخوذة بجوّها الرطيب يعبق بشذا ما تضمه من ورود زهور، وبالبركة الجميلة يتموّج ماؤها تحت ضوء القمر.

يتجه إليها مرحباً ، يصافحها وعلائم السرور بقدمها بادية في عينيه.

- أهلاً بك ايّفا ، يا لها من مفاجأة جميلة.. دعينا نجلس
- هلاً سمحت لي قبل الجلوس بتنشّق الياسمين ، وأحب أن أنوّه .. لا طيب اليوم ينبعث من شعري .

تعلو وجهه ابتسامة ، ويتجهان إلى الياسمين القابعة في الظل. وفيما هما يستنشيان شذاها، يتعمد أمجد لمس خدها بطرف أنفه ، فتبقى في وقفتهما دونما حركة ، جرّاء حذر عذب سرى في جسدها ، تلتفت إليه لتتعانق الشفاه ، والجفون ذابلة ، بقُبَل مغمّسة بالياسمين ، لروحين ظامئتين وجسدين عطشين .

تصحو ايّفا من سكرتها متوجسة :

- حذار أمجد .. أخشى أن يرانا أحد
- ليس من أحد في المنزل ، والياسمين خير ستر لنا.
- عليّ أن أذهب
- ما جلسنا بعد !
- أراك غداً ، وأرى ما كنت تقرأ.

وفيما كانت تنطق ، كانت حدقتا عينيها تلمعان تحت ضوء القمر ببريق لم يره أمجد في عينيّن من قبل ، أما صدرها الفخور وهو يعلو ويهبط مواكباً خفقات قلبها ، فقد حفّزه لأن يضمّها إليه راغباً بصهر كيانه في كيانه قبل أن تغيب عن عينيه ، فكانت بينهما

قبلة مديدة حرّى .. وللذة عارمة سرّت فيهما ، ما انفكا عن بعضهما إلا عند سماع صرير باب الحديقة تُواربه رضىّة عائدة إلى المنزل. قبعاً تحت الياسمين ساكنين ، ينتظران دخولها الدار، فيما كانت هي تجيل نظرها عجة من نافورة تنضح ومصباح مُنار، وما من أحد. ما إن اطمأنت ايّفاً لدخول رضىّة الدار، حتى خطفت لثمة من خده وغادرت مسرعة .

في صبيحة اليوم التالي، أيقظت رضىّة أخوها ليشاركها القهوة الصباحية ، واتخذت جلستها المعتادة في شرفة تطل على الحديقة ، تنتظر قدومهما ، ويا له من غيظ تملكها وهي ترى نثرات من زهرات الياسمين مسحوقة على الأرض فتكظم غيظها . لحظة أتى أمجد لاحتساء قهوته مصبّحاً على رضىّة وهو ينتأب مغالباً نعاسه من سهر طويل في فراشه مع طيف من فغمت فتوته بأنوثتها الساحرة .. أجابته رضىّة :

- أيّ خير...!! وزهرات الياسمين على الأرض مسحوقة كما ترى...!! خرجت البارحة من البيت مساءً ساعة حضرتك كنت جالساً في الجنية تقرأ، لأعود وأرى مصباح الحديقة مُناراً والنافورة تنضح ، وعند الصباح أرى ما أرى وترى ، جرّاء كونكما مساءً البارحة معاً تلوزان بالياسمين ..

- من تقصدين، ولماذا نلوز بالياسمين ؟
- حضرتك والأنسة المحترمة ايّفا ..
- هُبي أنا كنا معاً عند الياسمين ، أئمة ما يدعو إلى أن نفعل بها هذا ؟! ثم هي لا تحبذ قطف الأزهار، ولحظة عودتك ، لمحتك تدخلين الدار ساعة كنتُ أحدث جارنا في الحي . لا تطلقي العنان لخيالك ، أختي ، فظنك هذا ظالم .. لا بدّ من أن بعضاً من المارة ليلاً أرادوا قطف الياسمين على عجل ، فتسببوا بهذا .. تعلمين كم يسهل فتح باب حديقتنا من الخارج .
- أنا لا أطلق العنان لخيالي ، لقد لمحتكما ساكنين تحت الياسمين لحظة دخولي الحديقة، وهذا يؤكد أنكما كنتما في وضع لا يوحى بالبراءة .
- إذّا، لا سبيل إلى الإنكار، حسناً ، في المرة القادمة سنحرص على ألا نُسيء للياسمين .

- ما شاء الله...!! مازال هناك مرة قادمة !!

- أمازحك أختي

- هداك الله يا أمجد .

(٢)

وكان حبّ اتقدت جذوته بين عمّي أمجد وجارتنا دوموازيل ايّفا ، علمت به في مستهلّ شبابي . فعلاقتي بعمّي أمجد تجاوزت القرابة إلى صداقة حميمة ، على الرغم من ستة وعشرين عاماً تفصل بين عمرينا. وها أنا بعد أعوام ثلاثة من تركه الدنيا - وهو في السادسة والستين من عمر عاشه عازباً - أكتب عن إحدى سيره العاطفية ، بعد أن حظيت من أبي على محفظة جلدية أنهكها الزمن ، تركّة عزيزة عليّ من عمّي ، تغصّ بمجمل ما كان في حوزته من صور ورسائل ، من بينها ما كان له من الأنسة ايّفاً، اطلعت عليها ، فكانت حافزاً لأخط هذه القصة.

علمت من المكاتيب ، أن ايّفا كانت قد غادرت حلب إلى بيروت ، عام خمسين وتسعمئة وألف، لتبدأ عملاً جديداً لدى أسرة في بيروت ، ثم سافرت لتعمل في بلدة المحلة الكبرى بمصر ، وأنها ظلت تكتب عمّي حبيبها الذي لن تنساه - كما تقول في إحدى رسائلها - على مدى أعوام ثلاثة.

لقد تزوج أبي بأمي في دار والده التي شبّ فيها مع أخويه وأختيه، في وقت كان شقيقه الأكبر سنّاً ملتحقاً حينها بعمله الدبلوماسي في تركيا ، أما الشقيقتان ، فكانتا قد انتقلتا إلى بيت الزوجية ، لكن عمّي أمجد ظلّ محتفظاً بغرفته في الدار ذاتها، في عيشة مشتركة معنا لسنوات طويلة.

في إحدى رسائلها عام اثنين وخمسين ، سألت الحبيبة حبيبها عمّا إذا كانت امرأة أخيه - أمي - قد وضعت وليدها ، وما أسمته .. فعرفت أنها كانت تسأل عني .

أذكر أنني سمعت يوماً ، وأنا في مقتبل العمر، بأن الأنسة ايّفا زارتنا بضع مرات وهي في زيارة لحلب، وحملتني بين يديها وأنا ابن عام أو عامين، ولا أذكر أنني سألت عمّي يوماً عن مصيرها..!

أما والداي فلا يعرفان سوى أنها رحلت عن جيرتهم، وأنها لم تكن لعمّي أكثر من صديقة . لكن رسائلها قد كشفت لي عن حب دام قرابة خمسة أعوام قبل الفرقة ، وذلك لما فيها من لواعج الحب وألم الفراق، وكم بيّنت الرسائل رغبتها الشديد بالاقتران بعمّي، إذ وهي بعيدة عنه، ترى أيامها باهتة، وحياتها مقفرة، وأن روحها الحزينة لا تتي تصبو إلى روحه، ولا يمكن لرجل أن يمسه من بعده، وكم تخشى أن يكون قد أثر

غيرها بحبه .. وكم تتمنى أن يناديها لتهرع إليه . وكان في المحفظة صورتان لها بين كدسة من الصور، تحملان خلفهما كلمات الإهداء . وعلى الرغم ممّا مرّ من زمن ، أخذني إحساس من شفقة على الفتاة ، موقناً — بحسب ما كنت قد لمستّه في شخصية عمّي النرجسية — أن حبيبها الأثير لم يكن يراها مناسبة له كزوجة .

كان لرسائلها المؤثرة وقع في نفسي ، جعلني أنوي البحث عنها مستعيناً بعناوين أربعة دُوّنت بذيل كل رسالة ، لأعلم مصيرها ، وأُعلمها مصير حبيبها الذي عاش ومات دون أن يكون لسواها ، هذا إذا ما وجدتها حيّة وقد مضى اثنان وأربعون عاماً منذ أن افترقا . ولا أكتّم باعث فضول لدي لتلقي وقع لقائها بي أنا الذي فيه ما يشبه قسمات حبيب قديم لها ، ربّما مازال حبه دفيناً فيها .

كانت في مكاتيبها لا تني تُطري بامتنان على ما كان يبيده لها - قريباً وبعيداً - من ريق الحب ، وعلى ما بثّها من جمّ لطفه وحنانه .. وما من مغلف لرسائلها إلا وكُتب عليه : " يُسَلِّمُ لحضرة الأديب المهدّب الشاب أمجد السباعي، دام بقاءه * " . وبذا جعلتني أستذكر خصاله، وما اتسم به من كياسة أرنتني فيه صديقاً أنسّه وأستعذب مجالسته .. كيف لا .. وفيه روح الأديب والناقد والموسيقي والشاعر .. أسمعني من عزفه وغنائه ، قرأ لي من نظمه ، وقصار قصصه . وكم آسف أن الأيام ما سنحت لي بلقائه - بعدما رَشِدْتُ وانفصل بسكناه عنّا - إلا بين فترات متباعدة . لكنني ظللت آخذ عليه في سري ، شيئاً من غرور شاب سريره، تركّه لا يرى فتاة جديرة بالاقتران به ، ولا عملاً يليق به بعد تقاعده عن عمله الوظيفي ، فعاش معسراً بقية عمره .

بيد أنني أكبر فيه صدوده عن الزواج في مرحلة متقدمة من عمره ، لما أيقنته ببصيرتي ، أنه لا يريد أن يظلم امرأة بالزواج منه وهو الذي أدمن الخمرة فتمكنت من أسر كيانه . وبالقدر الذي ألمتني به وحدثه القاتلة في أواخر حياته ، سرّني خلاص روحه المعذبة بانعاقها من جسده المضنى .. لعلها أن ترى الراحة برحمة بارئها الواسعة .

* بقاءه .

(٣)

طفقت أبحث، لعلّي ألقى فرداً من جيراننا الذين عاشت بينهم الأنسة إيّفاً، فأستدل منهم على مكانها أو أعلم عن مصيرها .. حتى عثرت على امرأة طاعنة في السن ، هي

قريبة لجيراننا القدامى الذين عملت لديهم ، استطاعت أن تفيدني بأن ضالتي تقضي بقية عمرها نزيلة دار للمسنين في إحدى ضواحي بيروت ، وذلك بمساع من أبناء إحدى الأسر التي رعت ذويهم ردهاً من الزمن . شعرت بالأسى لهذا المنتهى لإنسانة كانت يوماً يافعة يانعة ، تفيض حباً نحو من رآته أحب الناس إليها ، وأخيرهم لبناء أسرتها المأمولة ، في حين لم يكن هو يراها، بحسب تقديري، سوى أولى حبيبات عهد شبابه .

بقيت أروم رؤيتها ، فانتويت السفر .. ركبت إلى لبنان ، وقصدت دار المسنين في بيروت . رأيتها داراً لائقة ، تضم كل ما يُرتجى في سبيل غايتها ، فراودني اطمئنان وكأن الأنسة ايضاً إحدى قريباتي المقربات.. ولشد ما صُدمت بعلمي عدم حلول من يحمل اسمها ، يوماً ، نزيراً في تلك الدار! سامح الله تلك العجوز قريبة جيراننا ، على دلالة ابتكرتها من خيال.

عدت إلى عنوانين كانا على رسائلها. الأول لم يعد من أثر له على الأرض ، أما المنزل بحسب العنوان الثاني فكان يسكنه أناس لا يعلمون مآلاً لمن سبقهم فيه ، لكنهم دلّوني على جيران لهم لعلّهم بمساعدتهم أن أصل إلى مبتغاي . وُفّقت في الوصول، ورأيتني أمام باب دار يُفترض أنها تؤوي من أسعى إليها . بدت لي الدار من خارجها جميلة بطرازها العمراني القديم ، منيفة على حديقة تزورها من جهاتها الأربع. ولجئت الحديقة ، صعدت بضع درجات وطرقت الباب ، فانسنى بعد برهة عن وجه شككت أن يكون وجهها ، مقارنة مع صورة لها أيام الصبا. حييتها وبادرتها بالسؤال :

- العمّة ايضاً ؟

- نعم .. هل من خدمة يا بُنيّ ؟

أتاني صوتها ناعماً حلواً .. فأجبت :

- أنا من حلب، وأنتمي إلى أحد معارفك القدامى هناك. هل لقسمات وجهي أن تُذكرك به ؟

حملقت في وجهي بعينين واهنتين ، وقالت :

- اعذرني بُنيّ ، سأضع نظارتي كي أتبين ملامحك جيداً ، تفضل بالدخول.. تفضل.

أفضى بيّ الباب إلى صالة فسيحة تضم أثاثاً بسيطاً ، جميلاً ، ينمّ عن ذوق لافت ، وجلستُ حيث أشارت لي. غابت لبرهة ، فكرتُ خلالها بأنها لن تتمكن من معرفتي رغم شبهتي بعمّي. عادت والنظارة على عينيها ، جلست إلى جانبي ، وأخذت تتأمل وجهي . آثار السنين كانت بادية على وجهها المتعب ، لكن حيويّة بدت لي فيها ، لم تكن في عمّي قبيل ارتحاله. قالت :

- لك شبّه بأحد معارفي القدامى في حلب ، مع فارق السن ، وأستبعد أي رابط بينكما ، إذ إن سنين طويلة انقضت دون معرفة أحدنا بمصير الآخر أو حتى عنوانه .
- هل هو أمجد ؟
- أيعقل !! أأصدّق أن ابن أمجد في بيتي بعد مُضيّ كل تلك السنين !!
- بل أنا ابن أخيه ..
- أيّ أخ منهما.. ناظم أم عادل ، وأيّ ربح طيّبة حملتك إليّ ؟!
- أنا ابن ناظم ، وليست الريح من حملتني إليك، بل قصدتك يا عمّة ..
- أنت صادق الذي حملته بضع مرات على ساعديّ يوم كان يحبو ؟!
- نعم أنا هو، وأنا اليوم هنا عرفاناً مني لمحبة أبنيتيها لي ذات يوم.
- لو تعلم مدى دهشتي يا ولدي .. أهلاً وسهلاً بك .. أهلاً وسهلاً ..

مرّت براحة يدها على رأسي ، وأبقتها على كتفي .. كأنها رأت وجهه في وجهي .. أحسست أنها تروم عناقي ، وأنا أرى دموعاً تترقرق في عينيها. انتابني شعور بالذنب ، فقلت :

- سامحيني يا عمّة .. فقد نكأْتُ ما كان مندماً من جراحك .

مسحتُ ما سال من دموعها على وجنتيها بأناملها المرهقة وقالت :

- لكم أنا سعيدة بزيارتك التي ردّنتني إلى أجمل أيام حياتي ، لكنك فاجأتني بذكرك لجراحي .. ما أدراك بها ، وما الذي دعاك لزيارة عجوز نسيها عمّك منذ أمد بعيد ، وكيف عثرت عليّ ؟! هلاً حدّثتني .. لكن ، بعد أن آتيك بالقهوة .

حكيت لها.. وحكت لي ..

علمتُ أنها باتت تحيا بمفردها في هذه الدار، بعد وفاة أخيها ، وأن ما أبقاها لها والدها من تركة متواضعة ، وما ورثته من زوجها الراحل ، يعينها على قضاء ما تبقى لها من عمر .

لَشَدَّ ما آلمني يقينها بأن حبيبها ، أمجد ، لم يكن يرى فيها الزوجة المناسبة - من غير أن يفصح لها بذلك - وهو المعتدّ بانتمائيه الأسري وثقافته الواسعة .. وبالرغم من ذلك ، ظل هيامها بحبه يكتنفها على مدى ما مرّ من زمن ! قالت :

- درست التمريض وتمرّست به بباعث من حبّي لهذه المهنة الإنسانية ، واقتناعي بسمو غايتها ، لكن يحزّ في النفس رؤية أناسٍ يتماشون مع ما يسود مجتمعهم من مفاهيم خاطئة ، لمجرد أنها عُرفت سائد ! عمّك كان يدّعي، ظاهراً، بأنه ليس من أولئك الناس. ولعلك تعلم بأنه ذو فكر علماني .. فلا يمكن أن يكون اختلاف انتمائنا الديني سبباً يحول دون زواجنا ، إلا إن كان يحسب حساباً لمحيطه ، ولا سيّما أنني أزاول عملاً متواضعاً ، وذلك ما لم يكن لعمّك أن يُقرّ به سبباً لعدم اقتراننا ! كانت حُجته هي عدم تمكنه من تأمين مستلزمات الحياة الزوجية من مسكن مستقل وما يتبع ذلك ..

صمتت لبرهة ليزول انفعال ألمّ بها ، ثم تابعت تقول :

- حسرتي عليك يا أمجد .. وليرحمك الله ..

لا تظننّ يا صادق أنني حاقدة عليه ، فقد عذرتّه منذ أمد بعيد ، وخبّأتُ حبّه في قلبي لغمّ آلمني سرديك لنهايته المحزنة. كان الأجدى له أن يحاط بزوجة وأطفال ينشغل برعايتهم، فيبعدونه عن إدمان الخمر.. إنّ واجب رعاية الأسرة كان كفيلاً بثنيه عن اعتياد الشرب ، لا سيّما إن كان حظي بزوجة محبة صبورة ..

- لكن يا عمّة هناك أسر تعاني من أرباب لها ينفقون كسب يومهم على الشراب ، وهم لا يكادون يستدّون رمق أطفالهم ، فترين صورة من البؤس فظيعة !
- لا يمكن لعمّك أن يؤثر خمرته على أسرته ، فأنا أعرف سجاياء.
- ولتلك السجاياء .. أرى أنه أثر البقاء عازباً بعد أن أسره حب الخمرة.
- ذلك لأن الألوان كان قد فاتت يا بني ، لو كان قدّر له زواج سعيد في مستقبل شبابه لما انتهى تلك النهاية .. ليرحمه الله ويغفر له .

- أحزنني ارتحال زوجك بغتة إثر حادث مؤلم ، ومن بعده ، أخيك بعد مغالبتة المرض ولا ريب في أنك تقاسين الوحدة .

- بفضل الله مازلت أصلُ بعض الأرحام ، وأعتني بحديثي التي تسليني وحدثي.

- إنها حديقة جميلة التنسيق ، تعكس جمال روحك.

- سلمت يا ولدي ، وإنك لطيب النفس إذ تكبّدت مشقة السؤال عني.

- أكنّت سعيدة بالسنوات الأربع من زواجك ؟

- كنت جد سعيدة .. كان زوجي طيباً ، عطوفاً ، محباً .. وقد آلمني فراقه كثيراً

وجعلني منكسرة النفس ، مدبرة عن الحياة زمناً طويلاً .. إلا أنني بفضل من الله
تعافيت راضية بما قسمه لي .

- هل عوضك حب زوجك عن حب عمي ؟
- حب عمك سكن وجداني ، ومازالت ذكرياته دافئةً فيه .. هو حب روحيين توأمين .
- أما حبي لزوجي فقد احتواه قلبي .. وملك كياني لما لقيت من خالص حبه .. وجميل
معاشرته .
- بعد قراءتي رسائلِك، انتابني إحساس، لا أدري باعته، بأني إن رأيتك فسأرى امرأة
يائسة .. وكأن سعيي إلى لقائك كان دافعه تطبيب خاطر امرأة خذلتها الأيام .. ولعل
الباعث لهذا الإحساس كان أسلوبك في كتابة الرسائل ! لكني إذ رأيتك وسمعتك ،
أحمد الله على الحال التي أنت عليها ..
- بارك الله فيك يا صادق وأطال عمرك .
- وأمدك الله ياعمةً بالعافية الدائمة ، وأعانك على الأيام .

مضى ما يزيد عن ساعتين ، ونحن نتبادل الحديث . أبديت إعجابي بدارها وبما
حوته من مقتنيات .. حتى كانت لحظة الوداع على باب حديقته .. وإذا بي ألمح عريشة
ياسمين لقاء ، يضمها ركن قصي من الحديقة ، حانيةً سويقاتها على كرسي حجري ..!
وإذا بقشعريرة تسري فيّ ، متخيلاً أن للعمّة جلسات تحتها ، تستعيد خلالها لحظات
حميمة أيام الصبا .. مشيت إلى الياasmine ، وتوقفت أمامها أتأملها سارحاً ، كأني أمام
نصب تذكاري ..! نبّهني صوت العمّة :

- ألك ولع بالياسمين ؟
- أكنّ له حباً خاصاً .. لأنه يذكرني بأولى القبلات ، تحت زهراته ، لحبيبين كانا يوماً
ينضحان صباً ..

نظرت إليّ واجمةً بعينين دهشتين وقالت :

- لاشك في أن صداقتكما كانت جدّ قوية ، حتى حكى لك عن هاتيك القبلات ..!
-

ابتسمت ، واحتويت يدها الرقيقة بين يديّ ، وقبلتها مودعاً .
ومع أول نفحة عذبة ، لفحتني ، من نسيمات لبنان الرطبية .. تملّكني إحساس عذب
حزين .. وطيف أمجد و(قوني)* وهما في ميعة الصبا راح يتراءى لخيالي .

* (قوني) : توقيع ايضا في ذيل كل رسالة لأمجد .

(خريف عام ١٩٩٥)

* * * *



معاً .. تحت مظلة واحدة

[١]

انقضت الساعات الثلاث التي على يارا أن تقضيها كل يوم في معهد للرسم التشكيلي، كائن وسط المدينة ، تصقل فيه موهبتها .. فالساعة تشير إلى الثامنة مساء . لملمت ما تبعثر من أدوات وأشياء تخصّها ، بحركات رشيقة ، ارتدت معطفها ، ضمت رأسها في قبعتها ، تناولت مظلتها ، ثم ألقت التحية على زملائها ، وخرجت مسرعة .

كان الجو بارداً في الخارج ، لكن سروراً سرى فيها حين أخذ رذاذ المطر يداعب وجنتيها على نحو محبب إليها مذ كانت طفلة. خبأت أذنيها تحت قبعتها الصوفية بحركة خاطفة من أناملها الناعمة ، فتحت مظلتها ، وراحت تغدّ السير عبر الطرقات نحو بيتها ، مارةً بواجهات المحال التجارية غير أبهة بما تحتويه ، ولا بأنوارها البراقة الملونة ، وغير مكترثة بوجوه المارة من حولها، متخطية حفرة هنا وبقعة ماء هناك، بعفوية تشكّلت لديها، ذاهبة إلى المعهد آية منه، طيلة عام ونيّف .

أخذ المطر ينهمر على نحو أغزر، فراحت تسرع الخطى، حاملة ببيتها الدافئ ، وقد مثّل وجه أمها الحبيبة في مخيلتها، متمنية أن تكون قد حضّرت حساءً لتتناوله ساخناً حال وصولها المنزل ، ممّا حثّها على الإسراع في مشيها .

- عالية ..

تناهى الاسم إلى سمعها ، وأحست أنها المقصودة ، رغم أنه ليس اسمها ! التفتت نحو مصدر الصوت، وإذا بوجه شاب وسيم يبسم لها متقدماً نحوها بخطى حثيثة، ما إن حاذها حتى بادرها التحية بنبرة ودودة :

- مرحبا عالية ..

توقفت عن السير والتفتت إليه :

- عفوا أيها السيّد ، يبدو أنني على شبه من إحدى معارفك ، فأنا لا أعرفك ، واسمي ليس ما ذكرت !

- لا يمكن ! أنا متأكد من أنك عالية ، وأستغرب أن تتنكري لي ! إلا إن كنت نسيتني ! دققي النظر في وجهي .. أيعقل أن ملامحي تبدلت خلال مدة لا تزيد عن عام واحد !

دققت النظر، وقالت :

- أسفة .. أنا متأكدة من عدم سابق معرفة بيننا.

تابعت سيرها، فتبعها الشاب مواصلاً حديثه :

- أيمن أن تنسي من تكبد عناء السؤال عن حبة ليسكن بها صداعاً ألم بك يومها ، وسعى جاهداً كي يجلب لك كأس ماء لابتلاعها ، فانكفاً على وجهه والكأس في يده لحظة انعطاف القطار! وحين سعى لك بكأس أخرى ، كان أن صار أضحوكة بين المسافرين ، وهو يترجّح بالكأس الملانة، ملتطماً بهم حتى انسكب معظم ما فيها ، فضحكت عليه مع رفيقتك أكثر من الآخرين؟! لأزل أذكر اسم رفيقتك أيضاً .. سامية ، أليس كذلك ؟ وحين قدّمتُ الكأس لك، كتمت ضحكة كادت تُفلت منك ..

تابعت يارا ، وهي تبتسم :

- ثم ابتلعتُ الحبة، واعتذرتُ لما سببت لك من إزعاج، وحين استوقفتُ لنا سيارة أجرة لتوصلنا - إذ إننا وحيدتان والليل في حلول - اعتذرنا شاكرتين. رغبت في أن نعرفك على اسمينا ، فقلت لك أنا عالية ، وصديقتي سامية ، ثم غبنا عنك بالسيارة وأنت تشيّعنا بنظرات الخيبة. أليس هذا صحيحاً ؟

- إنه الصحيح بعينه.. وآمل ألا تدعيني هذه المرة أشيّعك بنظرات مماثلة لتلك ..

ما كاد الشاب ينهي عبارته، حتى لمعت السماء ببرق أحال الدنيا من حولهما نهراً، ودوى هزيم الرعد دويّاً ارتعشت له القلوب، وانهمر وابل من مطر أضحت المظلات له دون جدوى، ثم هبت ريح نفوح ، طيّرت بعض المظلات من أيادي المحتمين بها ، فكان أن أصاب الناس حال ارتباك شديد .. فرأى الشاب أن يغتتم فجأة الطقس، ليجعلها مبرراً لدعوة يارا إلى مكان قريب منهما فتكون سانحة يوطد بها تعارفهما .

- هناك كافيتيريا على الرصيف المقابل، يستحسن أن نلتجئ إليها، ونتناول شراباً ساخناً ريثما تخفّ وطأة العاصفة .. مارأيك ؟

- لا .. سأتابع السير، فالمنزل لم يعد بعيداً

وإذا بالرعد يعاود قصفه بدويّ أشدّ ، فومض برق ، فدوي .. والرياح في ازدياد ..

- لا يعقل أن تتابعي السير والطقس على هذا النحو .. هيا اتبعيني ، لا تترددي .

تمثلت يارا دفء جو الكافيتيريا ، وكوباً ساخناً بين يديها ، وكيف أنها ستكون في مأمن من عاصفة هوجاء ، ليس هناك ما ينبئ أنها آيلة إلى سكون ، فأغرتها الصورة ، رغم أنها كانت تدرّك - في قرارة نفسها - أن عليها ألا تقبل الدعوة . تبعت الشاب ، حتى وصلا أمام مدخل الكافيتيريا ، فانحنى مباعداً الباب ، داعياً يارا للدخول . سرى دفء المكان فيهما ، ومع أنغام الموسيقى الناعمة تنساب خافتة في أرجاء المكان ، شعرت يارا بالراحة للحظة ، لكن سرعان ما اكتنف نفسها إحساس بالقلق ، وهي ترى نفسها بصحبة شخص غريب . جلسا إلى طاولة تتوسطها أنية تضم قرنفلتين ، فانحنى الشاب عليهما يستنشييهما ، مغمض العينين ، مبدياً نشوته بعبيرهما . اقترب النادل منهما ، تعلو وجهه ابتسامة مرجبة ، سائلاً عما يرغبان في تناوله . سأل الشاب يارا عما تحبذ ، فدلّته شفتاها ، وإيماءة من كتفيها ، أن لا شيء محدّد . فطلب شايّاً مع طبق من الكعك المحلى ، ثم التفت إليها :

- هل لي أن أتشرف بمعرفة الإسم ؟
- يارا
- جميل . اسمي عادل ، وشتان بين اسمينا .
- وما هو وجه الشنت بينهما ؟
- لاسمك وقع موسيقي جميل لافت لم أسمعهُ سوى من فيروز .. ما معناه يا ترى ؟
- مختلّف على معناه وأصله ، يقال إنه فارسي أو تركي أو سرياني ، ومعناه حبيب ، أو زهرة ، أو جنيّة البحر .
- إن اسمي ، بالرغم من معناه الواضح ، إلا أنه جاف الوقع على الأذن ، وبات عادياً لكثرة تداوله بين الناس .
- عليك ألا تستهين به ، فهو اسم وقور ، جميل المعنى ، وذو جذور عربية .. يا سيد عادل .
- يسرني أنك ترين اسمي على هذا النحو ، ويا حبذا لو تتأدّيني به مجرّداً من لقب سيّد .
- الاحترام واجب سيّد عادل ، فليس بيننا ما يدعو لعدم التكلّف ، فلولا غزارة المطر وشدة الرياح ، مصحوبين بالحاءك ، لما كنا معاً الآن .
- لكنّا سنكون صديقين ..
- أترى ذلك ؟!
- لا أرى من مانع ، إن كنا راغبين ؟!
- أعتقد أن الصداقة لا تنعقد برغبة مسبقة ، بل تولد تلقائياً وتنمو بين اثنين قد جمعتهم ميول أو اهتمامات مشتركة .

- ألا يمكن أن نعدّ جلستنا هذه .. بداية لولادة صداقة بيننا ؟
- بالطبع لا. فبحسب رأيك ، أي اثنين يقفان اللحظة معاً تحت سائر عن المطر، ينتظران هدوء العاصفة ، يمكن لهما أن يكونا صديقين .
- يارا .. يبدو أنك تتجاهلين أمراً مهماً !
- ما هو ؟
- ذلك الإحساس الذي ينبئنا حين نلتقي بعض الأشخاص ، أنهم قريبون منا ، جراء شعور خفيّ يجذبنا إليهم ، وغالباً ما يكون هذا الإحساس متبادلاً ، وهو ما أحسسته نحوك مذ وقعت عيناك عليك في القطار ، وآمل أنك تبادليني هذا الإحساس ..
- ابتسمت يارا ، ونظرت إلى ساعتها لتقول :
- تأخر الوقت ، يجب أن أغادر ، فالعاصفة على ما يبدو قد هدأت. شكراً لضيافتك .
- لكننا لم ننه نقاشنا بعد !
- لا بدّ أن والديّ منشغلا البال عليّ الآن ، فعليّ ألا أتأخر.
- إذاً ، أراك غداً.
- تريثت يارا قليلاً ، وطيف ابتسامة على شفيتها ، ثم أجابت :
- إن شاء الله
- إذن غداً في السابعة مساء ، في هذا المكا
- لا أستطيع أن أعدك
- سأكون بانتظارك
- هلاً نغادر ؟
- تفضلي
- ما إن خرجا حتى بادرها قائلاً :
- هل لي بالسير معك حتى تصلي البيت؟ فالطقس أضحى يغري بالمشي ، ولا سيما برفقتك .. يالها من رطوبة منعشة ..
- أشكرك ، لا داعي لذلك ، إذ عليّ أن أسرع ، فلن تتمكن من الاستمتاع بالمشي
- كما تشائين ، فإلى موعدنا غداً .
- استهل عادل خُطاه وهو يتنشق ملء رئتيه من نسائم ذلك المساء ، جذلان بالظفر الذي حققه بالجلوس إلى تلك الغادة ..

أما يارا ، فقد زفرت زفرة ارتياح ، لانعتاقها من مأزق لم تدر كيف حلّ بها.
لشعوره بسرور عارم تملكه ، لم يع عادل كيف قطع الطريق الطويلة ماشياً إلى منزله. استلقى على فراشه وهو يفكر بقاء الغد ، وكيف سيتمكن من ولوج قلب يارا ، بعد أن استشف أنها لن تسلس قيادها له على نحو هيّئ ، لمجرد أنه يتّسم بوسامة أسرة .
أما يارا ، فقد خلدت إلى النوم ليلتها ، بعد تفكّر لم يُرسها على قرار فيما إذا كانت ستوافيه بحسب الموعد مساء اليوم التالي .

[٢]

في صبيحة اليوم التالي، ذهبت يارا إلى الجامعة لحضور محاضرات سنتها الأخيرة في هندسة العمارة. عند ولوجها مدخل كليتها، صادفت إحدى صديقاتها تبادرها التحية، وتزفّ إليها نبأ افتتاح معرض للوحات رسام تشكيلي مبدع، كانتا قد شهدتا، منذ عام، معرضه الأول :

- اليوم هو موعد افتتاح المعرض الثاني لرسوم منذر العلمي، لا بدّ أنك تذكرين كم أعجبنا بلوحاته في معرضه السابق
- حقاً؟! أين، ومتى؟
- بحسب بطاقة الدعوة التي تنازل عنها أخي غير الشغوف بحضور معارض الرسم، فإن الافتتاح سيكون في الخامسة، مساء هذا اليوم، وذلك في صالة جديدة، خصصتها وزارة الثقافة لتقام فيها المعارض، ستفتح أبوابها اليوم، لأول مرة، بمناسبة هذا المعرض.
- مازلت أذكر مدى إعجابي بلوحات هذا الفنان في معرضه الأول، إذ كانت تمتاز بأسلوب جديد ساحر، وبما صورته من مواضيع
- أنلتقي بعد انتهاء المحاضرات لنذهب معاً؟
- يسعدني ذلك ..

كان على يارا التغيب عن معهد الرسم هذا اليوم، ورأت أن لا بأس في لقاء ذلك العادل، بُعيد زيارتها للمعرض. فهي تستمري ما يبيده معظم الشبان من حركات متكلّفة، وما يتلفظون به من تعابير منمّقة وهم يحاولون التودّد إلى أنثى .

وقفت الصديقتان عند مدخل صالة المعرض، تجيلان النظر في أرجائها، فشاهدتا الفنان صاحب اللوحات، يرحّب بالزائرين، ويرد على إطراءاتهم، شارحاً للبعض ما يتساءلون عنه في أعماله.

حارت الفتاتان أتبدآن استعراض اللوحات عن قرب، أم تظلان مستمتعتين، لبرهة أخرى، بالنظر إلى الصالة وما تضم .. فجمال تزيينها، والتنسيق البديع لما تحتويه، والموسيقا الهادئة تناسب في أرجائها .. كانت مجتمعة تغري الزوار بالمكوث ما وسعهم.

سرحت الصديقتان فيما صاغته يد الفنان من موضوعات مستوحاة من قديم بيوت وحارات مدينته، ومن تشكيلات مستمدّة من فن العمارة الشرقية، بأسلوب متفرد وحس مرهف. وفيما هما تستعرضان اللوحات، إذا بأهة حادة تنبعث من يارا، لصدمة أصابت ظهرها، كادت تسقطها، لولا ذراع شاب حالت دون سقوطها .. وإذا بصوت رجوليّ عذب النبرات ينساب إلى سمعها :

- عفوكِ آنستي، أرجو أن تقبلي شديد اعتذاري لغفلي، وتسببي في إيلاّمك.

انسكب صوت الشاب في أذنيّ يارا لحناً ساحراً.. أما عيناه الصافيتان، فقد باحتا بخالص أسفه ، وشديد توجّعه ، على نحو أبلغ من أي كلام ! أحست بقلبها يختلج بقوة .. وبارتعاشة عذبة تسري في جسدها .. فحالّ انزعاجها رضئ. وقالت بنبرة لا توحى بأي انزعاج :

- لا عليكِ، أنا بخير

- أكرر اعتذاري، وبالغ أسفي يا آنسة

فكان منها أن أعربت عن صفحتها بابتسامة حرصت أن تنمّ عن كامل رضاها .. رغم أنها كانت متأثرة بشدة الصدمة. وغادر الشاب المعرض بصحبة رفيق كان معه .

سألته سمر :

- هل أنت على مايرام ؟

لم تنتبه يارا إلى السؤال وبانت ساهمة..!

- يارا .. أأنت بخير ؟

- نعم بخير .. لنتابع

- انظري إلى تلك اللوحة، أليست أسرة، رغم غموضها ؟!

ودونما أدنى تركيز، وافقت يارا صديقتها بإيماءة من رأسها !

- ما بك .. يارا ؟! أراك مضطربة الحال .. تستعرضين اللوحات على عجل، دون تأمل، على غير عادتك !!
- لا أعلم ما بي ، وأنت محقة إذ ترينني مضطربة
- ما الأمر .. أتودين المغادرة ؟
- حبذا لو نغادر
- أعتقد أن صدمة الشاب هي التي عكّرت صفو مزاجك
- نعم .. كانت شديدة.

وتابعت يارا تقول في سرّها : " ما الذي فعلته بي، وأيّ تأثير كان لكّ عليّ يا صاحب الصوت العذب، والنظرة الحانية..! لقد هزرت كياني .. واستحوزت ألباب تفكيري..! "

خرجت الصبيتان من الصالة، والأمل بروية الشاب - مترقباً خروجها - يملأ قلب يارا. لكن أملها سرعان ما تبدد، حين أجالت النظر في أرجاء حديقة المعرض، وفي مدى شارعه، ولم تره .

سارت الصديقتان معاً تلزمان الصمت .

سمر مستاءة من تكدر صفو صديقتها وعدم تمكنها من استعراض جميع اللوحات، ويارا تسترجع صورة الشاب، ونغمة صوته الأخاذ ..

تبادر سمر بالحديث :

- أيعقل أن لكزة ذاك الشاب دون سواها كانت سبباً في تبدل مزاجك !
- أما اعتري يوماً مزاجك انقلابٌ مفاجئ ؟
- بلى، ولكن بشيء من السبر، يمكن للمرء أن يدرك العلة، إذ لا بدّ من وجود سبب .

أملٌ لمّا يزل متأججاً في نفس يارا بأن يكون الشاب يراقبها من بعيد ، منتظراً سيرها وحيدة ، ليحادثها .. ففكرت بالتملص من مرافقة سمر .

- أستمحك عذراً سمر، لأنني لم أكن مرافقة جيدة اليوم، ولأنني سأغادرك الآن لزيارة أقرباء لي في هذا الحي ، لأمر ضروريّ ، أتأذنين لي؟ أراك غداً في الجامعة .
- حسناً، إلى اللقاء .

تابعت يارا سيرها على مهل وترقّب .. دقيقة، اثنتان، ثلاث، وخبا الأمل ..
حدّثت نفسها أن لعله ينوي الاقتراب منها عندما تنزوي في شارع خلو من المارة،
فانعطفت نحو شارع فرعي. دقائق أخرى تمر، ولا تسمع وقعاً لأيّ خطي، فترجع آيية،
وقد تلاشى آخر خيط من نسيج أملها. أثقلت الحسرة قلبها، وظلت كلمات اعتذاره تترجّع
في أذنيها، وتينك العينان تلّوحيان في خيالها، حتى وصلت بيتها .

كان عادل في تلك اللحظة، منتصب القامة أمام مرآته ، يتطيّب بعطره الثمين ،
ويدندن مغتبطاً للقاء - في ظلّه - وشيك .

[٣]

في اليوم التالي، حين أزف موعد الذهاب إلى معهد الرسم، رأت يارا نفسها تأخذ
سمّت المعرض، بفعل دافعين فيها. الأول، رغبتها في تأمل لوحاتٍ رأت بالأمس فيها ما
يجدر الالتفات إليه. أما الثاني، أو إنه هو الأول، لعلها تصادفه هناك يعاود زيارة
المعرض .

كانت الوافدة السابعة إلى المعرض في تلك الأمسيّة. تساءلت : أتراه يأتي؟ ثم
راحت تمعن النظر في اللوحات وكأنها ترتاد المعرض للمرة الأولى !

في ركن قصيٍّ من الصالة، كان الفنان مبدع اللوحات جالساً يطالع في صحيفة،
حين لفت انتباهه ظهْر فتاة هيفاء، يكسوه زيّ أنيق منسدل إلى حدّ يعلو الركبتين بقليل،
فتبدو من تحته ساقان كأنهما شكّلتا بإزميل نحّات حاذق. ما إن استبان المحيّا الوضيء
لذاك القدّ الأهيف، حتى عرف أنها الغادة التي كانت بين رواد البارحة، والتي رأى فيها
طراز الأنثى التي ينشدها، وفكر: يبدو أنها أعجبت بلوحاتي إلى حد جعلها تعاود
المجيء.

كانت يارا مأخوذة بلوحة تتأملها، حين ترك الفنان منذر ركنه، واتجه إليها يروم
استهلال حوار ما. وقف بجانبها، وسألها :

- هل لي بمعرفة ما تترك لوحتي هذه من انطباع في نفس الأنسة ؟
- أستاذ منذر!! إنها لوحة أسرة بحق ..
- ما الذي تريه أسراً فيها ؟
- ذاك التداخل الضبابي للألوان، يضيف على الموضوع مسحة رومانسية، وهي سمة
سائدة في معظم لوحاتك .. أمّا اليمامة بوقفها التياهة على الإفريز المنقوش لنافذة

- بديعة التكوين، واللبابة الزاحفة ساعية لعناقهما معاً .. يشغلان - مع تلك الصياغة اللونية، والحُذق في توزيع الضوء والظل - لوحة أسرة بحق !
- إن كانت اللوحة أسرة .. فليس بقدر ما هو أسر في خيالك الرحب، وحسك النقدي المرهف ! هل هل لي بمعرفة الاسم ؟
- يارا .
- جميل اسم يارا .. كما صاحبتة ..
- أشكر لك إطرءك، وأحب أن أزيد على ما أسلفت ..
- يَسْرُنِي ذلك ..
- على أن ثمة جواً فريداً طاغياً في لوحاتك، إلا أن كلاً منها تنفرد بتفاصيل تميزها عن الأخرى، فيحار الناظر أيها الأجل!!
- يسعدني أن تري لوحاتي على هذا النحو، إلا إن كنت تجامليني ..
- لا لست أجامل، بل هي الحقيقة
- ابتسم الفنان معبراً عن امتنانه .. وقد أعجب بالنبرة الواثقة تصدر عن هذه الفتاة، وبنظرتها للوحاته، فرغب بمعرفة من تكون، لكنه أرجأ السؤال، لملاحظته أنها تريد أن تتابع حديثها .
- أستاذ منذر، تلك اللوحة أراها أخاذة رغم ما يكتنف موضوعها من غموض ! هل لك بإفشاء سرّها ؟
- ليس من سر فيها، إنها مجرد صياغة لونية .. لا شك أنك تقدرين الفن للفن حتى أعجبت بها .
- ظلاً يستعرضان ما تبقى من لوحات بتودة، وهما يتحادثان، حتى وصلا ركناً زوياً، زُود ببضع مقاعد وثيرة، وطاولات واطئة، على مقربة من مَسَقَى يديره أبو مؤنس لمن يرغب في فنجان قهوة، أو كأس عصير.
- غصّت الصالة بزوارها، وبات على الفنان أن يتفرغ لاستقبال بعض معارفه، لكنه أثر البقاء مع يارا واغتنام ساحة تتيح له التباهي برفقتها أمام الأعين، والتفاخر بتلقي التحيات موشاة بكلمات المديح - على مسمع منها - فدعاها إلى فنجان من القهوة .
- أجالت يارا نظرها في الصالة، علّها تقع على ضالتها، قبل أن تلبي دعوة منذر، فلم تجدها. ارتدت إلى نفسها والحسرة تعتصر قلبها، ثم جلست تحدث نفسها : " أي مسّ اعتراني، لأترقب مجيئه، وكأننا على موعد !! لست أنا من تهزّها نسمة عابرة، ما الذي

دهاني..! لكنها لم تكن مجرد نسمة، بل كانت ريحاً عاصفة، اجتاحت كياني وحملتني
عالياً، لتتركني أهوي، بعدما تبددت ! "

تنبّه الفنان لشروود يارا ، فأعادها إليه قائلاً :

- هل ثمة من خطب أنسة يارا ؟ أحسست كأنك حلقت بعيداً
- لا.. إطلاقاً ! بل كنت أفكر بأن رسوماتك تجيء لتؤكد حنيناً إلى التراث الذي أمسى
محوراً لاهتمام أدبائنا ونقادنا وفنّانينا العرب منذ سنوات، فترى كتاباتهم وأعمالهم
تعكس ذاك الحنين .. حتى الهندسة التزيينية أضحت غالباً ما تُستمد من الأشكال
والزخارف التراثية، نقلاً مطابقاً ، أو دمجاً بما هو مستحدث ! ألا ترى هذا معي؟
- أوماً الفنان برأسه موافقاً ، وأجاب :

- ليس خافياً مدى انبهار الفكر العربي في عقود خلت بالحضارة الغربية.. وابتعاده عن
إرثه الثقافي شكلاً ومضموناً .. وقد غالينا في تقليد الغرب لنضفي على أنفسنا سِمة
التحضّر، وكأننا لسنا أصحاب حضارة .. حتى انسقنا كالنعاج أمام الراعي، بدل أن
نؤوب إلى إرثنا ونطوّره ليواكب العصر. وإن كنا نسأل اليوم عن سبب شعورنا
بالحنين نحو تراثنا، فمرّد ذلك، في رأيي، إلى أن الإنسان عموماً نزّاع إلى التجديد
لينعتق ما أمكن من سامة تكتنفه إذا ما اعتاد شيئاً، فبعد أن شبعنا من الأنماط الفكرية
والشكالية الدخيلة، تذكّرنا أن في تراثنا إرثاً لا يستهان به، في وقت تحنّطت فيه القيم
الفاضلة، لتمسي، بكل أسف، ضرباً من المثاليات المستهجنة، وأضحت الحياة ساحة
لمعترك بشري بشع .. فغدا كل قديم يذكّرنا بنمط حياتنا التي كانت دافئة بصدقها
وبساطتها ، وروح التآخي السائدة بين أناسها ..

تضيف يارا :

- ما أظن تَغْنِيّا بالأمجاد، وعودتنا إلى ما فات، إلا إدراكاً منّا بأننا على هامش
الحاضر
- ها أنتِ أصبت كبد الحقيقة .. وياليتنا نستبدل التَغْنِيّ بالماضي بالعمل الجاد ..

وإذا بصوت يقطع حوارهما :

- مرحباً .. منذر
- أهلاً .. أهلاً ومرحباً بأستاذنا الكبير ..

- كيف حالك منذر .. مرحباً آنسه
- آنسه يارا .. إنه أستاذي الذي لا أنساه .. جواد الطيّب
- تشرفت بالمعرفة

تتلقى من الأستاذ جواد ابتسامة شكر، ثم يلتفت إلى منذر :

- أهنتك من أعماقي على إبداعاتك المتجددة بين فترة وأخرى
- أنا تلميذك
- لا تتواضع .. فكم من تلميذ جاوز أستاذه
- لقد كنت لي مَعِيناً ثراً عرفت منه الكثير .. ومشجّعاً دؤوباً حثني على الاستمرار..

غابت يارا عن الحوار الدائر بين منذر وأستاذه، وبقيت عيناها معلقتين بوجه منذر، فرأته وسيماً ، توحى قسماته بطيبة في نفسه، وغمرها إحساس إعجاب به، سيّما أنها لاحظت تواضعه أمام أستاذه .

انفضّ زوار المعرض، ولم يعد في الصالة سوى يارا ومنذر جالسين يتحادثان، والساقى ينضدّ أشياءه، وقيم الصالة يستعد للإقبال ويرامق زميله الساقى، أن ما السبيل لحث الجليسين على المغادرة ! فينبّه أبو مؤنس الجليسين إلى أنهما قد أطلا المكوث، سائلاً :

- هل يرغب أستاذنا بشراب ما ؟
- شكراً أبا مؤنس، ولا أظنك جاداً في سؤالك

يخفي أبو مؤنس ابتسامته، ويقول :

- بل أنا جادٌ كل الجد أستاذ، فوجود وردتين مثلكما يجعلني مستأنساً

- بوركت يا أبا مؤنس

تتنبه يارا إلى أنه لم يعد هناك من زائر، والوقت قد تأخر، فتستأذن الفنان بالمغادرة. يتوجهان معاً نحو باب الصالة، فيفاجآن بمطر مدرار، يربك يارا، ويجعلها تلوم نفسها لنسيانها جلب مظلتها، فيبادر منذر قائلاً :

- لا تهتمي، إذ يمكننا، إن كنت لا تمانعين، الاحتماء تحت مظّتي، ريثما نحظى بـ (حنتور)

- وما هو الحنتور؟

- إنه اسم فارسي لعربة يقودها حوذي، ويجرّها حصان أو حصانان، استُعْمِلت فيما مضى لنقل الأشخاص
- يا له من حنين فيك إلى الماضي !

تتعانق العيون .. فيهرولان معاً تحت مظلةٍ واحدة، وليس ثمّة من صوتٍ لغير قطراتِ المطر تساقط على الإسفلتِ المنبسطِ أمامهما، بإيقاعٍ ينسابُ لذيذاً في كليهما.

(شتاء ١٩٩٥)





تلك الهالة..

كان التأثرُ بادياً في نبراتِ صوته وهو يتلو عليها ما كتبه قبل أيام، من وحي
حبِّه الجريح. نظر بعينين يغشاهما الدمع إلى عينيها، فرأى دموعاً حبيسةً في عينين
تُحدِّقان بحبٍ في عينيهِ، لكنهما في الآن ذاته، تقرأنه حزناً دفيناً .

كانا في لقاءٍ جمعهما وقد آلت زوجاً لغيره - لقاءً أراداه به وداعٍ حبٍّ، يريدان
لذكراه أن تحيا إلى ما بعدَ الحياة. عزَّ عليهما أفولُ حبٍّ دافقٍ موارٍ، دقاً صقيعٍ أيامها
سنينٍ أربعاً. لقد صَعَبَ عليهما محوُ لحظاتٍ حميمةٍ اقتطفها سوياً بكلِّ جراحةٍ فيهما -
على مدى تلك السنين - بغمضةٍ عين .

كان حبّاً حتى الهُيام ..

كانت لا تني تصرُّحُ حيناً، وتُلمِّحُ أحياناً، بأن تكونَ له الزوجة الوفية كما يبتغي، وطوعَ
بنانه .. وبالرغم من أنه لا يرى وجوبَ أن تكونَ الزوجةُ صاغرةً مذعنةً لزوجها على
نحوٍ مطلق، إلا أن إبداءَ رغبتها بذلك، كان يُذكي إحساسه برجولته، ويزيدُ من سيماءِ
أنوثتها.. فيراها خليفةً به .

عرفها وهي في السابعةَ عشرَ ربيعاً، ذات أنوثةٍ مكتملة..! كانت كالثمرة في أوج
ينوعها .. ملفوفةً القَدَّ، صبيحةً الوجه، ذاتَ عينين صافيتين بواحتين بعطشها لرجولته.
كانت ابتسامتها، كلما رآها، حاضرةً على شفَتين رِيَّانتين.. أمّا مداركها، فقد نمت عن
نضجٍ - ينذر وجوده في كثيرات يكبرنها سنّاً ممن عاركن الحياة، وذلك على الرغم من
تحصيلها المدرسي المتواضع بسبب أبٍ شديد التعنُّت، وهي التواقة لنهل المعرفة ما
وسعها ! فكانت قراءاتها المنزلية الحرة، ينبوعاً أمدها بذاك النضج الفكري، وزينها
بالمعرفة. لقد كان مُوقناً أن رغبتها في الزواج منه خالصةٌ لوجه حبهما الدافق .. تريد له
تبريكاً من العليِّ الغفور.. لتدئين يزيّن خلقها، ولأنها تخشى أن يزجَّ بها والدها في زواج
يكون لها سجنًا مدى الحياة .. ! لكن .. أتى له الزواج منها، وهو زوجٌ لغيرها، وأبٌ
عطوف .. كيف لا يبالي بمشاعرَ زوجةٍ محبة، ترعاه وأطفاله بكلِّ إخلاص .. وهو
المدرِكُ .. إن ثنى زواجه، سيقتلها الألم . وأطفاله .. فلذات كبده .. ألن يبخسهم حينها
الرعاية .. مهما سعى . أمّا هي، فما زالت في ربيع العمر، وريعان الصبا .. وأبواب
الحياة مشرعةً أمامها .

أبان لها ذلك مراراً، مغالباً حبه لها، متمنياً لها زوجاً يغمرها حباً وحناناً. لئن كان
في تبيانها هذا من الألم والمرارة ما فيه .. إلا أنه إملاء الضمير والواجب تجاه زوجته،
واعتبارٌ لتسعة عشر عاماً يكبر بها الحبيبة . لكنها كانت ترى في ذلك إجحافاً بحق حب

كبير يكتنف قلبيهما، فتُطرق برأسها عند سماعه مستنكرة .. لتعاود النظر إلى عينيه بعينين فيهما مزيد من العشق والهيام، متناسية أيَّ اعتبار، هامسةً له عبارتها التي تُسكِره "رَجُلِي .. رَجُلِي الوحيد" - همسة تذوب لها مشاعره .. فيغيبان في عناق تُسند فيه رأسها الجميل إلى صدره، لائذةً من قدرها القاسي. ويا لها من إطراءات صادقة كانت تُسمعه إياها بين آن وأن، تُبين مكانته في نفسها، وهو حين سماعها، كانت نفسه تنكمش خجلةً تعتصرها الحسرة، لأنه ستركها يوماً تنأى عنه بالرغم ممّا تكّن له من حب جمّ وصلّ حدّ القداسة. جابهتُ والديها، وهي تصدّ خطّاباً، فكانت محلّ استنكارهما لعزوف لا مسوّغ له .. آملةً من حبيبها أن يعي مبلغ حبها، ورغبتها اللامتناهية، في أن تكون له.

لكن يوماً أتى، أيقنتُ فيه أن ليس من أمل .. يومٍ أصرّ على أن تقبل بمن لا ينفكُّ يطلب الزواج منها، لا سيّما أنه - كما وصفته - حميد الصفات ويكبرها بسنين قليلة .. فأذعنت لإصراره مكرهة .

وهبَ طلالٌ هالةً إلى غيره ، كاتماً صرخةً حبٍ متجذّرٍ في عميق أعماقه ..

* *

عامٌ يمر .. وإذا هما يلتقيان مصادفةً في طريق مزدحم، فيتواعدان، برغبة من طلال، لتحدّثه عن أحوالها، وليعيد إليها رسائلها، كاتماً ما فيه من شوق للقاءها. فكان اللقاء في مقرّ عمله .

بعد دردشة قصيرة، وفيما هما يحتسيان القهوة، سألتها أن تحدّثه عن زوجها .. فقالت : إنه يحملها على هُذبٍ عينيه .. وردّدت ما قال لها منذ أيام " كلّما نظرتُ في عينيك، شعرتُ أنني أملك الدنيا .. وكلّما لمستُك، أحسستُ أنني أملك للمرة الأولى .. " . غالب طلال إحساسٌ غيرة بعثته هذه الكلمات في نفسه، وقال " يسعدني أنه يعي قدرَ الكنز الذي بين يديه " . فكان من هالة أن ودّته يعلم بحبيّن فيها .. حُبّه الممزوج بدمها .. وحبّ زوجها الذي يغمرها بحبه وحنانه وحسن معاملته . فقال " كم يسعدني أن أكرمك الله بهذا الزوج " . ثم تابع :

- تعلمين يا هالة منزلة رسائلك في نفسي .. فلا أريد لها تبعثراً بعد رحيلي عن الدنيا، إذ يسوءني تخيلها غيرَ محفوظة كما يليق بها .. هاك إياها لتحرقها إلى جانب مكاتبي إليك إن كنت لاتزالين تحتفظين بها .

تناولتها، وأخذت تقرأ بصمت سطوراً منها ، ثم قالت بصوتٍ تملؤه الحسرة :

- كيف لا أكون حافظةً لرسائلٍ هي ذوبٌ من روحك، وكلُّ ما بقي لي منك !! كيف
لنفسي أن تطاوعني في حرق ما خططنا حروفه بلواعج قلبينا.. !! ما رغبتك بحرقها
إلا دليل على اندثار ما كنتَ تكنّه لي من حُب عاهدتني يوماً أن يبقى حياً في قلبك إلى
الأبد .. وما كان قبولك أن أكون لغيرك، إلا لأنك لم تكن تراني أصلح لك .

- ما طويناه منذ زمن .. ها أنت تثيرينه مجدداً ! لمَ تظلميني يا هالة .. وأنا الذي كان
يراك شريكة مثلى لحياته ؟!

-

تسود لحظة صمت .. تغرورق خلالها عيونهما بالدمع متأثراً من قدر لم يجمعهما
سويّاً على درب الحياة. كان يؤلمه - أيّما إيّلام - اعتقادها الراسخ بأنه لم يكن يراها
خليقة به لتباينٍ في ثقافتيهما، ونمطٍ نشأتها .. وهو الذي لم يرَ في هذا التباين سبباً
وجيهاً ليُبعد بين روحين توأمين شاء الله لهما التلاقي .

حين همّت بوداعه، ودّ منها أن تزوره في مكان عمله كلما سنحت لها فرصة،
ليطمئن عليها، فوعدت أنها ستفعل. لكنّ إحساسه تلك اللحظة حدّته بأن هذا اللقاء هو
اللقاء الأخير. ترافقا ينزلان سلالماً مكان عمله، ذراعها في ذراعه .. حتى افترقا عند
بوابة المبنى. عاد إلى مكتبه ثقيل الخطى، مغتّم النفس، حزيناً. همّ بترتيب أوراق على
مكتبه، وإذا به يفاجأ بمكاتيبها في درج مكتبه، بعد أن حسب أنها باتت في حوزتها، فأيقن
أنها أعادت إلى الدرج في غفلة منه .

كان إحساسه صائباً لحظة الوداع .. فقد كان الوداع الأخير.

تنقضي السنوات دون أن يراها، ولا من صدفة جمعتهم. ما كان يثير عجب
طلال - وقد فات ما فات من سنين - أن ما فات نهار، إلا وزارت خياله في لحظة من
لحظات يومه ! ولا عجب أن تتراءى له إلى آخر يوم من حياته .. كيف ينساها..! وهي
في أصياف خلت - حيث كانا يسترقان اللقاء في عجالة - كم لملت بشفتيها قطرات
عرق من على جبينه ! كيف ينساها .. وهي في أحد الشتاءات البعيدة، أخذت طرف
فستانها، وبحركة رشيقة، أزال حرجه من سيلان طفيف داهم أنفه !

أتى له أن ينسى .. تلك الهالة .. !

* *

كان يوماً اشتد فيه حنينه إليها .. أخرج قصاصة ورق من جيبه، وأخذ يقرأ لي، أنا صديقه وموئله الأمين :

« إن غاب طيفك لبرهة .. فإنه لا يلبث أن يعود ناثرًا ألوانه في نفسي .. ففي بعض الأحيان، وأنا أسير، أو تتهدى بي حافلة، أو ساعة أكون جالساً مع ذاتي، يسطع محياك الصبوح بهياً أمام عيني، ويردني صوتك الحبيب هامساً " أبوس روحك " تسكبينها من روحك نغماً في روحي .. يا إلهي .. ما أعذبها نابغة من عميق وجدانك .. فأغيب نشوان .. حتى يعيدني إلى الواقع أسى ثقيل الوطأة، يهصر قلبي .. كيف أنساك، وكل ما فيك لا يُنسى .. !! »

مسح صديقي دمعة انحدرت على وجنته، ثم ناولني القصاصة، مع رزمة من ثمان وثلاثين رسالة من هالة إليه، وأربع خواطر من خواطرها، قائلاً : احفظها عندك، فلا أريد أن يطلع عليها أحد غيرك ، فيسيء الظن بي .. فسألته مستغرباً :

- عهدتك دائماً زوجاً مثالياً يستنكر الخيانة الزوجية لدرجة أنك تجاهلت فُرصاً أُتيحت لك، وذلك التزاماً منك بمبادئك الأخلاقية .. فكيف أذعنت لعلاقتك مع هالة ؟!

- استغرابك في محله .. حتى أنا كنت مستغرباً من نفسي .. لكن، حين يطالعك كل يوم وجه كالبدرا المنير .. هالته خمارُ صلاةٍ أبيض منسدل حتى الكتفين، يديم النظر إليك وضيئاً مع طيف ابتسامة من على شرفة، وأنت خلف نافذة مكتبك، وذلك كل يوم .. كل يوم .. ما عساك فاعل؟

- أتجاهل تلك النظرات مبتعداً عن النافذة .

- وهذا بعينه ما كان مني .. لكن أختيها اللتين تصغرانا سناً كانتا لا تبرحان ترشقان زجاج نافذة المكتب بكلمات الغسيل كلما علمتا بوجودي، فأضطر إلى الظهور مستوضحاً ومستنكراً، فأراهما تضحكان بجانب ذاك القمر بهالته الناصعة وابتسامته الرقيقة الساحرة . عددت الأمر مزاحاً .. لا أكثر من تودد يافعات إلى جارهن، فأخذنا نتحاور بتشكيل كلمات في الهواء بأصابعنا، كالتعريف بالأسماء والأعمار والأحوال، ومزّت أيام على هذه الشاكلة. أعلمتهم خلالها أنني متزوج وأب لأطفال، ولشدّ ما كانت دهشتهم، ولاسيما هالة، حين علمت أنني في السادسة والثلاثين من عمري، إذ بحسب

تقديرها، لا يمكن أن أكون متجاوزاً الثلاثين! ولشدّ ما كانت دهشتي حين علمتُ أن هالة التي بدت لي في العشرينات .. كانت في السابعة عشرة ! ذات يوم، أبدت هالة رغبتها في أن تقذف من شرفتها إلى نافذتي برسالة تشبكيها بملقط غسيل .. ما إن قذفتها حتى ارتطمت بحافة النافذة وهوت إلى الشارع، فما كان مني إلا أن هرعت لإحضارها والاطلاع على ما فيها. أذهلتني تلك الرسالة .. لم أكن لأتصور أن هالة التي لم يتح لها إكمال دراستها بعد المرحلة الابتدائية، يمكن أن تعبّر عن مشاعرها على النحو الذي جاء في رسالتها، ولا سيما أنها كانت لمّا تزل في سنّي المراهقة. لم أكن لأتصور ذلك النضج فيها، ولا تلك اللغة السليمة وذاك التعبير الجميل .. يصدر عن فتاة في مثل سنّها وبيئتها وتحصيلها المدرسي البسيط. وما إن أتتني رسالتها الثانية مؤكدةً ما بدا لي في رسالتها الأولى، حتى أثارت اهتمامي كما عاطفتي...! رسائلها باتت لديك ، يمكنك الرجوع إليها ، ولا بدّ أنك ستعذرني .

* *

رويت ما رويت .. بعد رحيل طلال إلى دار الآخرة، آملاً أن تقرأه هالة يوماً، منشوراً في كتاب، لتعيّ أنه ما كان - رحمه الله - ليكون زوجاً لغيرها، لو لم يكن لسواها، ولتعلم أن ثمة ما كان يؤرقه بقية حياته، وهو أن لا تكون صورته - في أحد لقاءاتهما - قد بقيت في نفسها صورة ملاك، كما كانت تراها دائماً . وهو كما عرفته أنا الصديق - إن لم يكن ملاكاً - فقد كان إنساناً يخشى الله . كان في داخله شيء من يقين بأن الله يستثني تلك العلاقة من درك الخطيئة ، لأنه العالمُ بشاكلتها، وبنوايا الصدور. وكان يُعذّر انجرافه نحو خضم ذلك الحب، عقاباً دنيوياً من ربه على ما كان يعتري نفسه، قبلاً، من اعتداد مفرط بقوة إرادتها وثبات مبادئها الأخلاقية - عقاباً جعله يوقن مدى ضعف النفس البشرية إن كانت ليست مسلّحة بالإيمان القوي الذي يحول دون الزلل . أرادني ألاّ أسيء تأويل علاقته بهالة، وأن أبعدها عن نطاق الخيانة الزوجية، فكان له مني ما أراد ، مع إشفاقي لحاله. سألته ذات مرة وأنا العارف بموقفه الراض من تعدد الزوجات إلا في حالات الضرورة : أما كان من المريح لك أن تخبر زوجتك بأمر حبك لهالة، فتتفهمه .. فترضى لكما القران؟ فأنت ميسور الحال، ولا بدّ ستكون عادلاً بين الاثنين، لاسيّما وأن زوجتك - كما علمتُ منك - تؤمن بشرع الله مقروناً بالفعل، لا قولاً فحسب. فأجاب « إلا هذه الفعلة .. فلن ترى زوجتي ما يبررها، فأنا أعرفها، هي كما هنّ باقي الزوجات، إلا ما ندر »، فقلت : لو أنهنّ يوقنّ ثوابهنّ عند

الله، لامتثالهنّ لشرعته - وهو الحكيم الأدرى بعباده - لتقبّلن الأمر راضيات. فللزواج الظالم ، أو غير العادل بين أزواجه ، ربٌّ يحاسبه ، ويعوّضهنّ بالحسنات .

رحمك الله يا طلال .. لقد عانيت من ذكرى أرقتك حتى مماتك، ربما لم تعد لهالة اليوم ، سوى محطة في مستهل صباها ، منسيّة لا تستدعي - إن هي ذكرتها - أكثر من طيف ابتسامة فاترة .

(خريف عام ١٩٩٦)

* *

يقيناً منّي أنّ روح طلال لن تعارض إطلاعي القارئ على رسائل هالة إليه، فقد انتويت أن أكتفي بعرض الرسالتين الأوليين، ثم رأيت أن أكتفي بثلاث منها فقط كي لا أطيل على القارئ، ثم انتهى قراري على أن أعرض أكثر ، رغم أنها جديرة بأن أعرضها كلّها .

الرسالة الأولى :

أستاذ طلال المحترم ..

يبدو أننا لن نستطيع أن نكون أبعد من صديقين وفيين عزيزين .. إن الفرق بيننا كبير، والمسافة بيننا بعيدة، لن تقربها نظرة أو ابتسامة. وبكل صراحة، أنا إذا التقيت بك فلن أصبر على مشاهدتك فقط، ولست أدري ما الذي سوف يحدث .. قد تقول إنها مندفعة طائشة لاهية .. لا .. لست كذلك، إنما أخاف أن أحبك أكثر من حب صديق لصديق، وعند ذلك سيكون بُعدك عني أقسى جريمة ترتكب في حق إنسانة تحمل لك المودة وتميل إليك .. ألا ترى معي أننا مهما حاولنا أن نلتقي فلن نستطيع؟ هذا يعني أنك في واد وأنا في واد آخر، وبيننا جدار عالٍ لا يمكننا نقيه أو هدمه. لست أدري إن كان ما أحسه نحوك هو حب أم شيء آخر.. إني - وحق الله - يعجز لساني عن وصفه، وقلمي عن البوح به ! فإنك وإن ذهبت .. يدوم حضورك، كأنك لم تذهب .. لست أدري كيف أعبر، فأنا لا أقوى على أن آتي بشيء يفصح عمّا بي ! أرجو أن نبقي صديقين وإلى الأبد . وحتى إن افترقنا ، أرجو منك إذا رأيتني ألا تدير ظهرك لي ، فإن هذا سيقتلني. أرغب في رؤيتك دائماً ، والتكلم معك ، فلا تحرمني هذا .. جبرائلاً لخاطري.

الرسالة الثانية :

أستاذي العزيز ..

أشكرك على ما أبديت لي من تعاطف ورقة متناهية في كلماتك المذهلة، ولا أقولها مجاملة .. إنما لواقع وحقيقة، فأنت كل ما فيك رائع وجميل .. وسامحك الله، لقد تعلقت كثيراً باسمك المزيف، فكثيراً ما ذكرته في خلواتي، وبينني وبين ذاتي، ولأكون عادلة بين الاسمين فقد أسميتك بهما معاً، لا لجمال هذا أو ذاك إنما لأنني تعلقت بالأول وأحب الثاني .

أعتذر عما بدر مني من قحة وقلة أدب وطيش أرعن، فسببت لك الضيق والحيرة بين مطاوعتي أو الالتزام بما يمليه عليك أدبك .. وأعترف لك اعتراف المذنب، وأعتذر لك اعتذار المخطئ، فأنا حمقاء تافهة .. والله العظيم يا سيدي إني لم أنظر إليك نظرة تدعو إلى الريبة، أو تعترئها رغبة جامحة .. لم أفكر بشيء من هذا إطلاقاً، فأنا لست أدري لماذا أحببتك أنت بالذات .. لست أدري .. لعل عذري الوحيد هو أنني لست أدري ! سيدي .. حركاتك .. نظراتك .. ردود أفعالك .. بصمات انطبعت في ذاكرتي .. لن تمحوها الأيام ولا الأعوام، محال أن أنساها، ومحال أن أنساك، ولا أظن أنني سألتقي في يوم برجل مثلك، فأنا أعتقد أن كل إنسان نسيج منفرد لا يتكرر، ينذر أن يكون له شبيهه.

ما يحدث لي الآن هو أن شيئاً ما نحوك قوي ورائع ينتابني .. لا يُنظر ولا يُلمس، بعيد كل البعد عما يدعو إلى الريبة، وبعيد كل البعد عن الأغراض الدنيئة والغرائز القبيحة . لن أخدعك أو أخدع نفسي بأني ملاك .. إنما أنا بشر أحاول تهذيب نفسي قدر الإمكان .

يا من جعلتني أعني غربتي ..
إليك ولذكرى حكاية لم نعشها ..
سوف يظل اسمك يأكلني حباً .. وحنيناً كلما ذكرته
سوف أظل أستعيد ذكراك ..
لبعث ظلالها وأصدائها في أعماقي ولو لبرهة
لا .. لن أنساك .. سوف أفتقدك .. سأفتقدك كثيراً
وداعاً .

الرسالة الثالثة :

إلى أغلى مخلوقٍ عندي ..

لا أزال أشعر حتى الساعة بجمال ذلك المقام الذي قمته بين يديك أمس، ولا أزال ألمس صدري، أتحسس مكان قلبي من أضلعي مخافة أن يكون قد طار سروراً بتلك السعادة التي هي كل ما يتمنى الإنسان.. ! ولو أن لامرئ أن يعبد من يسدي إليه أفضل النعم، لوجدتني أقبل يديك صباحاً ومساءً، ولا أحس بذل أو خضوع، إنما بالشكر والامتنان ..

أي رقة إحساس .. وعذوبة نفسٍ تمتلك !! وأي قلب تحمل بين جنبيك !!
أصدق أني التقيتك ورأيتك أمامي .. أحقاً كنت أنت ! إن سعادتي فوق طاقة احتمالي .. ولو أني أستطيع البوح بسرّي العظيم، لأفضيت لجميع الخلائق بقصتي، لعلهم ينالون جزءاً من سعادتي التي لا يمكن أن تماثلها سعادة .
لو أعلم أن تنفسي يعكّر جمال حضرتك ووقفتك .. لقتلت نفسي. ليتني أملك مفاتيح السرور والغبطة لأسبغ على الناس جميعاً منها، وأمحو بؤسهم وشقاءهم كما محوت بلقائي.. بؤسي وشقائي. إني لا أحتمل سعادتي.. فرفقاً بي أيها الصديق الرائع..
إنك أول إنسان استطاع أن يتغلغل في أعماق نفسي الجريحة.. وأول إنسان شعرت نحوه بشيء عظيم . أعاهدك عهداً لن أحنثه أبداً، أن أظل مخلصاً لتلك اليد التي امتدت إليّ .. فجمعت روعي في يدي .. ولمسنتها بحنان .

الرسالة الثلاثون :

سماء حياتي .. ودنياي .. لقد وقعنا في كثير من الملابس والأخطاء من خلال نقاشاتنا وأفكارنا حول حبنا..! واسمح لي أن أتحدث بوضوح وموضوعية : لست أدري كيف نخطئ نحن العقلاء، ونزيّف حقائق واضحة جليّة ! لقد كنّا في غاية الغباء ..
بتصورك أولاً أني إذا التقيتك في فراش واحد سينتهي ما بيننا، وبتمنيك هذا ثانياً ! وقد كنت أنت المرجّح للنهاية أو بداية النهاية عندها! ولكن لو نظرنا نظرة ثاقبة للأمر كلّهُ، لتأكّد غباؤنا، لأن هناك أمثلة كثيرة على عدم صحّة تصورنا، وإليك بعضها : الشاعر ابن زيدون أحب ولادة، وواصلها جسدياً، وحين افترقا، نهل من غيرها دون أن يسألُ حبها، ولم تتبدل مشاعره تجاهها، بل ظل يهتف بحبّها وعشقه لها من خلال أشعاره الكثيرة.. بل كان يتوسل رجوعها إليه. مجنون ليلي – الكتاب قد رفعوا وخفضوا بشأن حبه العذري – ترى أكان حبه عذرياً؟ اقرأ إن شئت، كتاب "ما رأي الإسلام في الحب"

فقد كان قيس، بعد زواج ليلي، إذا خرج زوجها مسافراً، دخل هو بيتها فقضى ما قضى معها، وبقي على جنونه بها، ومات على حبها . المعتمد الخليفة الأندلسي، لقد اشتهر بحبه لاعتماد حتى لُقِبَ باسمها، بل لقد أطلق على نفسه اسم المعتمد لأجلها، وتزوجها وهي ليست بأكثر من جارية التقاها مصادفة فعلق فؤاده بها .. كان باستطاعته أن يضعها مع جواريه، ولكن بحبه لها رفعها إلى ما فوق الزوجة والحببية.. جعلها معبودة. ولا أريد أن أذكر أمثلة من القرن العشرين فهي كثيرة ومتنوعة، يستطيع أي إنسان القراءة عنها حتى في الصحف اليومية .. عن منتحرة أو منتحرة حين حالت الحياة دون الاستمرار في وصال الحبيب. عفواً منك .. أنا لا أضخم المسألة كما يبدو لك، ولكن لتعلم أن ما بيننا لن ينتهي بالوصال الجسدي، لأنه ليس مرتبطاً به أصلاً، بل بالروح أولاً وأخيراً، وأنت أدري لأنك – وبكل بساطة – مُتَحَمٍّ .. ليس بك جوع أو عطش .. وأنا أستطيع اللهو – إن لم أقل التغيير – وقت أشياء .. ومع هذا، أنت تتوق إليّ .. وأنا أموت فيك حباً جارفاً يسحق قلبي قبل أضلعي .. فكيف له أن ينتهي ببضع رعشات لا تلبث أن تزول! وإما تواجدنا في تلك العلاقة الحيوانية، أنسى بعدها التوق الروحي .. ذاك الرابط القوي الذي يربطنا؟! لقد عبّرنا عن حبنا بكل طريقة .. استخلصنا أرفع ما في الجسد من تعبير .. القبل والعناق .. فإذا حدث أن تُقنا إلى أكثر من ذلك فسيكون بدافع من روحينا قبل جسدينا، فيتصل الجسد بالجسد، وتُحلّق الروحان متلاحميتين فوقهما، فكيف لحب كهذا أن ينتهي لمجرد التقاء الجسدين؟! أخيراً .. أذكر قول أرسطو: « إنَّ حباً أمكنه يوماً أن ينتهي، لم يكن في يوم من الأيام حباً حقيقياً » .

التّوّاقة إلى الحياة بجانبك .. ويا ليتها تكون بجانبك إلى ما بعد الحياة .

الرسالة الحادية والثلاثون :

بَعْتَةً .. وأنا أنهلُ منك الحياة .. وثمرَ النور .. لمحتُ على جانبيّ رأسك الجميل بضع شعيرات بيضاوات .. لمحتُهنَّ، ويا ليتني لمحتهنَّ قبلاً، لأزداد عشقاً لك. لقد هاج داخلي حباً، وطربث روعي إعجاباً بما رأيت ! تمنيت ساعتها لو أخطف واحدة أغرسها نبتة في أعماقي، وأدعها هناك لا يمسخها أحد بعدي. أحقاً هذا أنت .. أحقاً فيك كل ما أحبه وأقدسه؟! رجُلي القديس .. فارع الطول، سريع الخطوة، رشيق الحركة، محنّك اللمسة .. على عتبات خريف أخاذ! أه .. لطالما تقفُ إلى عشق رجل في خريف عمره .. له طابعه الخاص، وعبقُّه الفريد .. لقد بدوتُ لِنَظائري أكثر جمالاً وسحراً .. كنتُ لوحَةً

خريفية بعيدة المدى .. تمنيت أن أركع أمامك يا رجلي المعتق .. يا مَنْ أرتمي في
حضن نعيمه الذي لم يتذوقه قلبي بشر. تلقفتُ أذناي حفيف أجنحة ملائكية .. بصُرْتُها
تَهيم في علياء السماوات .. فوق الكائنات والأفاق .. فهامت روحي وراءها صامتة
عاشقة .. تُنصِتُ لذاك الحفيف وتُتمَتِم : أدامك الله لي حتى أراك تقتحم عتبة شتاء العمر ،
قوياً مليئاً بالشباب والحب والحياة .. أدامك الله وحفظك من كل مكروه أو حزن .. أدامك
وأبقاك ترفل بالسرور والصحة الدائمة ..
ستبقى كما أنت .. في زوايا نفسي وعميق أعماقها .

الرسالة السادسة والثلاثون :

حبيبي الغائب الحاضر ..
كيف أبدأ .. لست أدري ! وكأني أخط لأول مرة ، وكأني أكتب لك الرسالة
الأولى .. بكثير من الخوف والرهبة والوُدّ الصادق .. أحرار بالكلمات، ولا تكاد تسعفني
فكرتي .. لكنني أحسّ بحاجة للكتابة إليك ، تماماً كحاجتي إليك .
حبيبي .. بدأت حياتي تفرغ إلا من ذكراك .. أشعر أنني جوفاء فارغة لا قيمة ولا
معنى لحياتي .. فموتي أفضل عندي .. فقدت الكثير بل الكم الكبير من الغبطة والنور
في قرارة نفسي.. وكأني لست أنا بجنوني.. وكأن البركان المستعر بدأ يهدم شيئاً فشيئاً..
لم أعد أستطيع حراكاً ولا زُهوّاً .. أراني أسقط في فجوة عميقة سوداء لا أستطيع حيالها
فعل أمر لإنقاذ ذاتي .. أنصهر في بوتقة من التكرار الممل .. الأيام هي هي تتكرر ،
وأنا التي اعتدت الاستيقاظ كل يوم لأحيا عمراً جديداً بالحب الذي يملؤني .. والآن ،
تكاد تُزهق روحي .. لست معذبة ، بل تكتنفي الراحة ، والراحة لا تعني لي السعادة ،
والسعادة لحظات يمكن أن ينهلها الإنسان حتى وهو متوجس يترقب .
ماذا أقول وقد بدأت أحس بهاجس ما مضى ؟ تجب العودة ، فلا حياة تُعاش
بعدك .. فأيامي معك أهنا الأيام وأحلاها .. ولا ريب أنني لن أدوق مثلها قط بعد اليوم .
أفكر .. آه .. لقد قتلتُ نفسي يوم رحلتُ وأنهيتُ عمري .. يوم ابتعدتُ .. فبالرغم من
المعاناة التي لقيتها من الآخرين أيام كنت معك ، إلا أنني كنت أملك العالم بأسره ..
وأستحوذ على كنوز الأرض .. كنت دمية لا تهدأ .. ثورة جامحة لا تسكن ولا ترتاح !..
والآن أرى أنني أنحدر إلى النهاية لأصبح بقايا بشرية على هامش صفحة الحياة . كيف
أرجع إليك لأغيبك في ضلوعي، وأزرعك في أعماقي؟ أشعر بالقبح يجتاحني بعد
الجمال! أتعلم أنك أنت من منحني الجمال.. بحبك وقربك ونبعك الدافق بالطيبة والحنان..

كان انتعاشُ حواسي ورغْدُ عيشي .. وأبقى لا أعرف ماذا أكتب وماذا أفعل أو أقول .. وأعجز عن شرح مشاعري وما ينتابني .. « أنا لمّا بشوفك ، كأنّي بشوفك لأول مرة حبيبي .. أنا كل ما تودّعنا ، كأنّي تودّعنا لآخر مرة حبيبي » .

الرسالة السابعة والثلاثون :

إلى من احتواني في قلب رقيق .. وصدر دافئ ..
أتريدني أن أصدّق ما كتبتّه لي .. وأن أطيعك فيه ، فيكون ما أكتبه لا يتعدى أن يكون موضوعياً بحتاً .. وأتحدث إليك كمن يتحدث إلى غريب عنه لا يربطه به أيّ رابط ؟!
هل تريد أن أتكلّم معك بيا حضرة السيد..؟! يا للرعب..! أيعقل..! أنت صادق بطلبك هذا؟! ألم تع بعدُ أن لي حقّ الزوجة والحبيبة في آن معاً.. ويحقّ لي ما لا يحقّ لسواي؟! لقد هزّنتي رسالتك كالقَدَر المُنْزَل..! ولاسيّما عبارتك : " زهرات ذابلات، يحكين قصة حبّ فات " . إذأ ، فقد فات الحب أيضاً !! يا للعار.. لم تعد تصبرُ على بُعد قليل فيصبحُ لديك كلُّ ما كان .. مجرد ذكرى !!

خلّتُ يا صديقي أنّ ما بيننا لا يؤجّجه قرب، ولا يُطفئه بُعد، بل يبقى كما هو بنبضه وإحساسه الدفين فينا .. فإذا بالبُعد أصبح هجراً وعذراً !! ومنذ متى تعرف عني الرياء والخديعة ؟! هل لمستهما فيّ على مدى علاقتنا .. هل هما من طبعي حتى ادّعتِ ما ادّعتِ؟! يا للسخف .. إنّ ما يُقدّره الخالق ليس بسيّئاتي ولا حسناتي بل بمشيئته .. شاء رزق .. شاء منّع .. إنه رب العالمين لا يأخذ بالجريرة، ولا يعامل بالمثل، وإلا ما ترك عليها من دابة. كل ما في الأمر أنني أنهج سلوك العرفان بالجميل لشخص أكرمني وأغدق عليّ الراحة والطمأنينة. إنّ أسبابك واهية .. ولعل السبب الحقيقي واضح المعالم، وهو أن فكري، منذ فترة، أخذ يتّجه اتجاهاً مغايراً عمّا كان عليه، وذاك ممّا أكسبني الذي لمستّه فيّ . فكُنْتُ الشريعة والفقه غيرتني تدريجياً حتى بَتُّ أحسب ألف حساب لكل تصرف أقوم به. لو تعلم كم يؤثّر فيّ ذلك .. فأنا الآن ليس لي أصدقاء ولا جيران ولا أحد .. أختلي معظم أيامي حزينة في سهو دائم .. وأسبابُ التسلية شبه معدومة في البيت، وما أقرأه يجعلني في حال يرثى لها.. وأيّ حال..! يُسمّى هذا زُهداً .. أم جنوناً ؟ لوثراني عن قرب لأدركت هذه الحقيقة، فبالرغم من حملي .. هزلتُ عمّا كنتُ عليه من بدانة واضحة ! إني سقيمة، وأحب سَقمي هذا وراضيةً به. أهذا وعيٌّ أضحي فيّ يا حبيبي .. أم ماذا ؟ بَتُّ أعتبر أيّ أمر فتنة تصيبني أو بدعة تلبسني .. أحسّ أنني في تغير دائم .. عجباً !! أهى رغبة الإنسان في أن يكون عبداً، أم صراع مع

النفس كي تخضع لمشينة الروح، أم هو الخوف؟ بلى .. إنه الخوف .. الخشية تُبعد المرء عن فعل يرفضه عقله، فإن فعل، وقع تحت طائلة العقوبة القاسية .. ألا وهي الشعور بالخوف والتقريع والتهديد إن كرّر ما فعل .

ألتمس عفوك .. لأنني كنت فظةً ذلك اليوم البعيد، فما بدر منّي لا ريب ينغص عليك حتى اليوم، ولا تستطيع نسيانه .. سامحني .. فليس بيدي ما حدث، واعلم أنك الذي أحببت ولا شيء يُفقدني عرفاني وإحساسي بالحنان الدافق الذي غمرتني به ،

وسلسبيل الحب الصادق الذي سقيتني إياه .. واللمسات الطيبة التي أحالت شقائي سعادة. لا تصدّق أبداً أن جسدك عدوّي، إنه حبيب إلى قلبي مثل روحك تماماً .

أُحِبُّ أن أعلمك أنني هجرت المعصية أبداً .. فأقبلني وأقبل حبّي صادقاً طاهراً طيباً .. وتقبلني كما أنا إن كنت حقاً لم تزل تحبّني، فأنا لم أزل أُحِبُّك ..

منذ متى أمزّق رسائلك حتى أمزّق تلك الأخيرة؟! وأين الوديعة التي استودعتك إياها ؟ ألن تنتهي منها وتردّها إليّ؟! .

الرسالة الثامنة والثلاثون :

أحقاً إنك راحل ..؟ إنه ليعزّ عليّ ألا أراك بعد اليوم .. ويعزّ عليّ أكثر ألا تسأل عني وتذكرني وتنتظر رؤيتي .. إنه ليؤسفني أنك مبتعد عن أمكنة لقاءاتنا وحبنا .. أتذكر حين قلت لك سوف أفنقدك كثيراً..؟ أمّا الآن .. والآن فقط أيقنت أنني ما أحببت غيرك قطّ ، ولن أُحِبّ.. وإن كنت مع زوجي الآن، فهذا لا يعني أنني أحبه كما أحببتك .. إنك شيء ما غريب .. حلم ما بديع هاجع في داخلي .. وفجأة ظهر لي ثانية الآن، فخفت من أن يرحل . إني عاجزة عن الإتيان بك إلى عالمي، أو أن أدخل إلى عالمك .. ولن أستطيع ترك عالمنا الذي نسجنه معاً. سترحل أيها الحلم .. ستبتعد مخلفاً وراءك كمّاً هائلاً من الأشياء النفيسة .. تماماً كيوم ابتعدت أنا تاركة مكاننا بأسرارهِ وتدفّق الحياة في زواياه الحبيبة، وكل ما كان يعصف بي .. أقف الآن حزينة على عتباته الأخيرة .. بات من الماضي، لكنني ألفت إليه أحقّ فيه ملياً ولا أستطيع الرجوع إليه .. باب موصد، وبينني وبينه هوة سحيقة .. كلّما وضعت قدمي على عتبة انهارت التي خلفها وستنهار الأخيرة ، فأقع وأفقد الحلم تماماً وأبدأ !

تُرى ما سيحدث لك؟ أراك الآن بعين خيالي تعيش مثلي .. نصف إنسان .. نصفه الآخر محطّم . ألن تحتوي يداي رسالة منك بعد الآن لتدفعني جنباً للذين يملؤهما الصقيع؟! كيف أودّعك .. كيف أودّع من كان مثلك أيها الغالي؟! قرأت رسالتك وكأنها

الأولى .. في أول الصفحة تناديني بحبيبتى.. إذاً لم أزل حبيبتك يا حبيبي .. رغم
رعونتي معك .. رغم كل ما فعلته وغضبت منه ! أي صبر صبرت علي .. وأي
احتمال تحملت من أجلي ! لكني أعدك .. أعدك بحق، أني سأراك دائماً، وألتقيك كلما
سنت لي الظروف .. أعدك ..

أيها العزيز .. شلل لساني إذا كنت قد اتهمتكَ بتهمة أنت بريء منها، وذلك بسبب
ما كتبت يدي الآثمة، فجرحت مشاعرك العذبة كميّاه الغدران. إني لم أقصدك بهذا الذي
كتبت*، بل كانت مجرد لحظات اختليت خلالها بنفسي، فكنت أثور وأكتب، ثم أهدأ
وأكتب، فلا تعتب علي ، لأنك أعزّ عندي من أن ينالك لساني أو قلّمي بسوء .. وأجل في
نفسي من أن أعتك بنعت لا يليق بك فأظلمك به. اغفر لي تلك الكتابات التي لم أشأ أن
أطلعك عليها لتفاهتها بجانب ما تكتبه أنت .

ليكن فؤادك على يقين لا يرقى إليه ريب، بأنك عظيم في عيني وكبير في قلبي ..
كنت وبقيت وستظل .

* في أحد الأيام أبدى طلال إعجابه بأسلوب هالة في كتابة رسائلها إليه، وأثنى على
موهبتها، وحثّها على أن تكتب قصة، أو بعضاً من خواطر، وإذا بهالة تخبره بأن لها
محاولات في كتابة الخاطرة، لكنها لا تجرؤ على إطلاعه عليها لأنها لا ترى نفسها قد
تمكّنت من الكتابة لدرجة أن تدع أحداً يطلع عليها . لكن طلالاً ألحّ رغباً في الاطلاع
عليها ، فكان له ما أراد .

بعد أن قرأ طلال خواطرها الأربع، عدّها مستوحاةً من حبّهما .. وعاتبها على
النظرة التي انتهت إليها من علاقتها به في خاطرتها الرابعة، فكان ما جاء في رسالتها
الأخيرة الثامنة والثلاثين . بيّد أنّ طلالاً ما عدّ نفيها حصّه بتلك الخاطرة، إلا حياءً منها،
وصوناً لمشاعره .

الخاطرة الأولى : " وسادتي "

أويث إلى فراشي تماماً كما أفعل كل يوم، ودسست جسدي المتعب فيه كي أنام
بعد يوم حافل قضيته .. بغتة .. انعكس ضوء من مخدتي إلى وجهي .. تتبّهت وحملت
فيها ، فرأيت وجهك عليها، جلست أتأمله ساكناً مهيباً جميلاً .. كليلتي هذه ! وخلال
سويغات كان الضياء قد نثر بريقه الرائع فوق فراشي .. هدأت الحمامات عند نافذتي ..
وانتعشت الأزاهير في حديقتي بقطرات الندى .. مُفوّحة عطرها مع نسيمات رقيقة ،

فاستنشقتُها ملء صدري ..
غادرت فراشي لأعود إليه مساء كعادتي .. وكالبارحة ، جلست أتأمل وجهك على
مخدّتي .. حتى كاد النعاس يغلبني، فحاولت إصاق وجهي بوجهك على مخدّتي لبرهة
حتى كدت أختنق !
في الليلة التالية، شعرت بالغيرة من مخدّتي .. فما كان مني إلا أن دخلت غرفتي على
غفلة منها ، وانتشلت وجهك منها لأضعه سريعاً في إنسان عيني .. ورميتها تلك اللصّة
بعيداً، وغفوت دونها تلك الليلة، وما تلاها من ليالٍ، مع صورة وجهك .. ساهرة .

الخاطرة الثانية : " ما وراء الأقنعة "

أركض مهرولة في متاهات الحياة ..
ألبس رداء المجاملات وأشبك أزرار الابتسام المصطنع ، وأضع قناع الزيف ..
أضحك ببلاهة .. وأمرح بتفاهة .. لكني رغم هذا ..
أخبئ شيئاً نفيساً بعيداً عن كل ذلك .. هو ذكراك ..
فحين أخلو بذاتي ، أسرع مبتعدة خارج حدود الحياة البليدة ..
أخلع ردائي وقناعي .. أرميهما .. وأبكيك ..
أبكيك حقاً وصدقاً .. كتكلّي قُتل وليدها للتو ..
ويحلّ عذاب الحزن فوقني .. والذكرى تنهش عظمي ..
فأنتحب لفرافك وأستحضرك ..
أستحضر جسديك .. أنهال على فمك ..
أسكب فيه الدماء .. لعل اليباس يرحل عنه، فترجع شفتاك حارّتين غضّتين ..
لكن فمك لا يستجيب لتوسّلاتي ومحاولاتي .. ولا ينطق بحرف، فأعمد إلى يدك الحبيبة ..
ألمسها بقلبي الذي يحبك .. وبأدمعي أحفر على يدك أخايد، لعلها تحس بوجودي قربها ..
وما من جدوى فأعانق عنقك الجميل .. حتى تملّ الطيور العناق .. ولا أملّ أنا ..
وما من مجيب !! ويسافر الليل ..
أقوم إلى ردائي وقناعي ألبسهما ، وأعود تكرار تمثيلي البغيض ..
أسعى راكضة على الأرصفة المزدحمة للحياة ..
أرى كيف ترمي البشر في فخاخ الموت ..
أتابع الركض ..
فمن سيدرك حقيقة ما وراء الأقنعة .. مَنْ ؟!

الخاطرة الثالثة : " الفصول "

البرد شديد ، والتلج يملأ المكان ..
الصقيع والنديف الأبيض يكسوان وهاد الأرض إلى أعالي الشجر .. والجبال مزهوة
بحلّتها الناصعة ..
إنه الشتاء .. يشبه قلباً وحيداً فارغاً ..
برودة في برودة .. وصقيع في صقيع ..
ويطرق الوجودَ ضيفٌ جميل .. انتثرَ على ثوبه قوس قزح ..
فتح كَفِّه .. وإذا بهما تحمّلان زهوراً ربيعية كعمر أزهر للتو ، بأمانِي الأحلام
واللقاءات الخاطفة وبدت الهمسات البكر دافئة كُنُسيّات الربيع .. هادئة عليّة ..
وكعذوبة الغدير ورقّتِه تنسَلّ الكلمات رقيقة عذبة ..
يا لهذا الجمال ..!
ولكن ، سرعان ما أتت نسمة حارّة .. وهجّها نار شوق تُضرم القلوب كشمس محرقة ..
فكانت وجداً يملأ النفس ..
كل شيء في أوجه .. ثمرٌ ناضجٌ على أغصانه ..
وحُبٌّ يسكن حنايا الوجدان الخفيّة ..
بدأ المكان يصبح موحشاً .. تعصف به رياح شمالية .. تنذر بالوداع لحب كبير ..!
وتقرع النفسَ معلنة انتهاءه الأليم ..!
ويتساقط الورق ، وكل ما كان وما لم يكن .. حتى الأحلامُ المريرة .. والعمرُ الأمرّ ..
وتنساق قطرات المطر كما الدموع تنثال على الجراح العميقة .. تُلْسَعُها تارة ، وتُبْلِسُها
تارة أخرى .
تَصْفُرُ رياح خريفية تنثر الوريقات ضمائر وقلوباً محطّمة تَفْتَتّت هنا وهناك .. صفراء
يابسة .. إنه العُري من الشيء واللاشيء ..
أتأمّل لوحة الوجود الأزليّة .. أغمض عيني لأرى بوضوح أكثر ..
تسري قشعريرة باردة في جسدي ، تُقَسِرُنِي على التنبّه ..
إنه لَسَعٌ باردٌ قاسٍ ..
وها أنا مع بداية اللوحة ..
بردٌ جديد ..
مدفأة الذكريات لا تغني عن الجليد المتجمّد داخل النفوس ..
فالحُبّ كالفصول .. يدور كما تدور .

الخطرة الرابعة : " الشقاء معك "

أوقفني ها هنا ، لا أريد الاستمرار معك ..
اتركني هنا في منتصف الطريق الموحش .. لا أريد المسير خطوة واحدة معك ..
قدمي رسمت خطأ مستقيماً طوال طريق قطعته معك ..
حيث كان يجرحني نبات وحشي نبت على جانبي الطريق ..
فامتألت قروحاً دامية ، وأنت غير عابئ ..
اتركني فقد انهارت آمالي وضاعت في ظلمة الطريق ..
تمرّ أمامي وجوه بلهاء ضاحكة .. أكره النظر إليها .. أنا الباكية ..
أودّ أن أعود .. أن أرجع إلى أول الطريق ..
فأراني العوبة بيد ساخر ..
أنساق وراءه دون جدوى .. كانسيق النعاج للذبح في مكان موبوء ..
دعني .. لم أعد أريد الرجوع أو الاستمرار في السير معك ..
سأبقى هنا معلقة بين الحزن والفرح ..
بين الجرح والتألم .. بين النزف وانقطاعه ..
لم أعد أطيق .. سأبقى هنا .. حبيسة بين الماضي والآتي ..
موغلةً في حاضرٍ معذب ..
اتركني ها هنا .. فقد عجزت عن التحمل أكثر ..
تعبت قدامي، وتعبت روعي من اللهات جرياً وراءك للوصول إلى قربك ..
نعم .. تعب الجسد ، وتعبت الروح ، وهما يركضان ليصلا إليك ..
أتوسّل .. دعني .. فلا أريد استمراراً معك .





دعوة إلى العشاء ..



ضجّت الصلاة بالتصفيق .. بعد أغنية أداها على المسرح .. أسرعت تشقّ طريقها بين الحضور نحو إدارة المسرح ، وسألت عن الأستاذ جلال . قالوا لها إنه غادر للتو، فهرعت إلى الخارج لعلها تلتاقه قبل أن يغيب، فتشاهده عن بُعد يفتح باب سيارته ، فتنادي : أستاذ جلال .. أستاذ جلال . التفت نحوها وانتظر حتى دنت منه .

- مساء الخير أستاذ جلال، كم كان أداؤك رائعاً .. لقد جعلتني أحلق نشوانة وأنا أستمع إليك .. أرجو أن تقبل دعوتي للعشاء تعبيراً عن إعجابي الشديد، ولعلها تكون فاتحة صداقة بيننا .
- جميلة دعوتك يا آنسة، وأنت أيضاً جميلة .. أشكر لك دعوتك بالغ الشكر، إلا أنني أرجو أن تعذريني ، فزوجتي وابنتاي بانتظاري على العشاء .
- إذاً .. ليكن في الغد
- هم كل يوم في انتظاري على العشاء
- لتكن دعوتي إذن على الغداء أو الفطور
- هم دائماً في انتظاري لنتناول الطعام سوياً . أجاب الأستاذ جلال مبتسماً .

- أطرقت الفتاة خائبة ، وقالت :
- يا لسوء حظي .. أرجو أن تعذر جرأتي .. إذ لا أدري كيف لم أتمالك نفسي مسرعة إليك .
 - لا عليك .. إن أنا خذلتك، فثمة من لن يخذلك إن أنت دعوته، وهو جدير بإعجاب أشد من إعجابك بي .
 - من تقصد ؟!

رفع إصبعه نحو السماء، ونظر إلى أعلى ، فقالت :

- أدامك الله لأسرتك الكريمة .. بلّغهم تحياتي .

مدّت يدها ، تصافحا ، وافترقا .

هي عادت متناقلة الخطى إلى مقعدها في الصلاة .

هو انطلق مسرعاً إلى المسجد لصلاة العشاء .

* * * *



دعيني أتزيّن أمّي ..

كانت بكر والديها، متفوقة في جميع سنّي دراستها حتى نيلها شهادة الثانوية العامة - قسم الفلسفة، بدرجة امتياز، وذلك بمدرسة القديس جوزيف للراهبات في أنطاكية، وذلك عام أربعين وتسعمئة وألف، وهي في الثامنة عشر من عمرها .

أجادت اللغات التركية، والفرنسية، والعربية، والأرمنية، وكتبت الشعر بالفرنسية، وكانت إذا ما قرأت نصاً مرتين أو ثلاثاً حفظته عن ظهر قلب. كما أجادت، بأناملها الرشيقة، عزف الموسيقى الكلاسيكية على البيانو، وألحان التراتيل الكنسية على آلة الهارمونيوم . عشقت المطالعة، وبرعت في أداء الأدوار التمثيلية الصعبة على مسرح مدرستها.

تحلّت برفعة الأخلاق، وحسن السلوك .. فكانت القدوة الحسنة، والمثل الأعلى لشقيق وشقيقتين يصغرونها سناً، ومحطّ فخر واعتزاز لوالديها.

على الرغم من تناسق قدها، إلا أنها أرادت إنقاص وزنها، فاتّبعّت حمية غذائية قاسية جداً أنهكت جسدها الفتّي حتى غزاه مرض السل بأعلى درجاته، ما أدى إلى ضرورة إرسالها لتلقي العلاج في مصح مجهّز بأحسن التجهيزات وأكفأ القيمين .. يقع بمصيف (ايرينكوي) في اسطنبول، يمتاز بهوائه النقي الشافي .. فأضمت هناك قرابة العام .

في إحدى زيارات أمها لها، في المصح، طلبت الأم إليها بإلحاح ألا تُتعب جسدها الواهن بالتزيّن أمام المرأة، فقالت " دعيني أتزيّن أمّي.. ألا يحقّ لي التزيّن وقد باتت أيامي معدودة !" .

خلف صورة فوتوغرافية لها، في حديقة المصح، كانت قد أرسلتها لوالديها في ١٩٤١/١١/٢٨، كتبت بالفرنسية بخطها الجميل ما ترجمته : " وسط هذه الطبيعة الجميلة .. المغتربة الصغيرة تحنّ لزرقة سماء موطنها " . وإذا برسالة تأتيها من والدها، يدعو فيها الله أن يمنّ عليهم بشفائها العاجل، لتعود إلى أحضانهم .. فترد : " أبي الحبيب .. أشكر الله أن أمرضني فجعلك تؤمن بوجوده " .

اشتدت حدّة مرضها فتوجب نقلها إلى المشفى الأمريكي في اسطنبول . وذات ليلة باردة، قالت لأُمها الساهرة إلى جانبها " أُمي .. الثلج يهطل بغزارة الليلة .. أشعر أنني سأفارقكم صباح الغد " .

عند الصباح ساءت حالها ولم تعد قادرة على الكلام . استُدعي الوالد على عجل، وحين رآته، أومأت إليه بيدها تطلب قلماً وورقة، لكن القدر عاجلها قبل أن تتمكن من كتابة ما ودّت كتابته، فأغمضت إغماضتها الأخيرة وهي على عتبة ربيعها العشرين، سنة واحد وأربعين، سعيدة بوجود حبيبَيها .. أمها وأبيها .. إلى جانبها .

تلك كانت خالتي .. رحمها الله .. شقيقة أُمي .

وَيَمَثُلُ في خاطري، وأنا أبُّ لأبناء، طيفا جدّي وجدّتي – المُفعمان، كما عرفتهما أيام طفولتي ويفاعتي، بفيض طيبٍ وحنان – مدركاً هول الفاجعة التي هدّتهما في ذلك اليوم .. لحظة انطفاء ريحانة لهما ، فريدة .. غضة .. بهيّة .. فوّاحة .

* * * *

رقصُ الفراشات ..

كم نُسرّ بمرأى فراشتين تطيران جنباً إلى جنب بحركات خاطفة رشيقة، تحومان في كل اتجاه، في ارتفاع وانخفاض، لا تكادان تهدآن على زهرة .. وكأنهما تعبّران عن مدى اغتباطهما بالزهرات المتفتحات تدعوها إليهن للوصال في أحضان الطبيعة الزاهية.

لكن ثمة مشهداً يضاهيه أسراً وأخذاً بالألباب، لفراشتين بشريتين بزلاجتين بدل الجناحين، ترقصان على سطح مليس من الجليد، تواكبان، منسجمتين متآلفتين، ألحاناً منتقاة تنبعث في فضاء رحب لصالة تغصّ بالناظرين - ألحاناً تُجَنّ تارة وتهداً أخرى.. وما تاتّك الفراشتان المتناغمتان إلّا فتى وفتاة في أوج الصبّ، يزهوان بلباس لصيق، ملائم لجنس كل منهما، يُبرز جمال الجسد المتناسق، ينزلقان منسابين معاً، كل على زلاجتيه - بمنتهى الخفة والروعة - على أنغام تلك الألحان تنساب في رويحيهما.. فلا يخالهما الناظر إلّا ريشتين تحملهما الرياح كما يحلو لهما، لا كما يحلو لها - ريشتين ما تكادان تنفصلان حتى تعودا متشابكتين مندغمتين، تدوران وتدوران ما بين تسارع وتباطؤ، تروحان وتجيئان بتهادٍ، أو كلمح البصر، بحركات وتشكيلات أخّاذة ..!

كم ينجلي لنا تباين المقدرة الجسدية بين الذكورة والأنوثة في اللحظات التي يحمل فيها الفتى فتاته عالياً بذراعيه، لنتخذ على يديه أو كتفيه، فوق رأسه أو على صدره، هيئات تُبرز جمال جسدها الأهيف المرن المطواع، أو وهو ينقلها ما بين يديه، وهي تحوم حوله أو تنسلّ من بين ساقيه من طرف لآخر متكورة على نفسها، أو باسطة كامل جسدها، وهي كالدمية طوع يديه، تارة يُبعدها وتارة يدنيها، فإذا به يحررها .. فلا تطيق ابتعاداً، فتعود إليه ليتابعا رقصهما بحركات تنساب متزامنة متماثلة، متباينة متآلفة، كما ولا أروع . ويا لها من لوحة باهرة .. حين تصل سرعة دورانهما متشابكين إلى ذروة لا يمكن عندها لعين الناظر تمييز ملامحهما المتماهية ببعضها. هذا في الشكل والحركة. أمّا فيما يخصّ المضمون، فلا أرى فناً أرقى وأبلغ، من هذا الفن، تعبيراً عن التجاذب والانسجام والتآلف الروحي والجسدي بين الجنسين البشريين. وكأنني بذاك الثنائي الراقص .. حبيبين هائمين ببعضهما !

وليس الرقص الفرديُّ لتلك الفراشات البشرية بأقل أهمية من الرقص الثنائيِّ، فإنَّ كان الثنائيُّ يمثل عاطفة الحب في أوجها، فالفرديُّ يمثل شعور الفرد بالنشوة الروحية في ذروتها ..

ولا يفوتني أن أشير إلى اللحظة التي يتزامن فيها سكون الموسيقى مع سكون حركة الراقص أو الراقصين معاً، إذ إنني أرى في ذلك السكون .. النهاية المحتمة لكل حال ولكل شيء .

وكم استمرئ ذلك العناق .. وتلك القبلة التي يتبادلها الراقصان إثر انتهاء عرضهما - وهما في قمة الإجهاد - تعبيراً عن رضا كل منهما بأداء الآخر ، وعرفاناً بالجهد الذي بذل .

كلما تابعت عرضاً للرقص على الجليد، من خلال المنافسات العالمية، منقولة عبر الفضائيات، أقول في نفسي .. يا لها من حسرة ستنتاب تلك الفراشات البشرية - بعد أن تُمسي في شتاء العمر - وهي تتابع عروضاً لرقصها الرشيق أيام شبابها .

١٦ - ٣ - ٢٠٠٥

أحلى صوت ..

في حلقة من حلقات برنامج أحلى صوت، في مرحلته الثانية، انبرى على المسرح متباريان .. شابّ وسيم مشيق القامة، شعره جعد مشعث، بلباس شبابيّ بسيط .. وشابة رقيقة حلوة متوسطة الطول، شعرها قصّ على هيئة (تيت كاريه)، بلباس محتشم أنيق . غنّيا معاً أغنية جميلة باقتدار وإحساس عالٍ. ما إن أنهيا أداءها حتى ضرب كل منهما كفه بكفّ الآخر تعبيراً عن رضاها بأدائهما، وصَفَّق الحضور، ولجنة التحكيم، استحساناً وإعجاباً . إلا أن المُحكِّم الذي درّبهما معاً على أداء الأغنية، قد اختار الشاب ليكون بين المتنافسين في المرحلة النهائية . عانقت الشابة الشاب مباركة له فوزه، إلا أن العناق دام زمناً أكثر من المتوقع .. حينها علت الابتسامات وجوه الحاضرين جميعاً، وصَفَّقوا تصفيقاً حاداً معبرين عن استحسانهم وتعاطفهم الكبيرين لما بدا أنه عناقٌ يعبر عن عاطفة حب صادقة مخبأة في قلوبين .. فكان أن أعقب ذلك حوار مرح مطوّل بين المتنافسين من جهة، ولجنة التحكيم من جهة، صرّح الشاب خلاله بأن ساعات التدرّب على أداء الأغنية مع زميلته قد أهدته صديقةً وأختاً عزيزة. علا التصفيق ثانية، وتداخلت أصوات الحاضرين .. إلا أن حَكَمَةً مدّت ذراعها ، ورفعت صوتها طالبةً من الحضور أن يُصغوا إليها، ثم التفتت إلى المتباريين قائلة : " إني أوّمن بالعشق، وإنّ ذاك العناق الصادق الجميل .. لهو مؤشّر واضح على أن ثمة عاطفة متبادلة قد تمكنت من قلبيكما فاسمحا لها بالنمو " . أراد الشاب التعليق على ما قالتها الحَكَمَةُ، لكن مدير المسرح - سامحه الله - لم يُتَح له ذلك، طالباً منه ترك المنصة للفتاة. فكان بين الفتى والفتاة عناق ثانٍ مؤثر، لم يكن بأقل حرارةً وامتداداً من سابقه، فتجدّد التصفيق هادراً من الحضور المتعاطف .

بقيت الفتاة على المسرح ساكنة بوجه يشي بانفعال شديد، تواجه لحظات صعبة من الترقب والتوجس، ممّا إذا كان أحد المُحكِّمين - غير الذي كانت في مجموعته - سيضمّمها إلى مجموعته، خلال بضع ثوان متاحة، لمواصلة مشاركتها في المنافسة النهائية ، أم لا. تمر الثواني المحددة لاتخاذ القرار، ثقلاً ، مصحوبة بمؤثرات صوتية ملائمة للموقف الحاسم، وإذا بحَكَمٍ وحَكَمَةٍ، في آخر ثانية متبقية، يفاجئان الجميع معلّنين طلبهما للفتاة، بضغطة زر. انفرجت أسارير الفتاة بالمفاجأة المفرحة غير المتوقعة ، وصار عليها أن تختار أحدهما، لمواصلة المسير معه، حتى المرحلة النهائية. راح كل من الحكم والحَكَمَةُ يستميل الفتاة إليه بإطراءات ووعود، لتختار أحدهما دون

الآخر. إلا أن الفتاة عبّرت عن امتنانها لكليهما، ثم اختارت الحكمة. وعن سبب اختيارها قالت :

" لأنها قدّرت ما استشفّته فينا - أنا وزميلي - وأثنت عليه بحماس بالغ أحسست أنه نابع من قلبها " .

إن كان ذاك العناق المؤثر سبباً أدّى إلى استمرار الفتاة في التنافس، إلا أنها كانت جديرة بالاستمرار بحق ، لأدائها المتميّز .

٥ - ٢ - ٢٠١٨

* * * *

تلك التحف ..

تطالعني بين حين وحين، وأنا أسير عبر شوارع وأحياء مدينتي، أبنية قديمة مهجورة، غاية في الروعة تصميماً وتشبيداً وزخرفاً .. هي بحق، تحفٌ فنيةٌ جديرةٌ بالحفظ والصون من كل أذى، فطبيعة الحياة المعاصرة، لا تسنح بتشبيد أبنية تماثلها، لعوامل عدة، ليست موضوع أسطري هذه. فأقول في نفسي - وأنا أرى إلى تلك الأبنية الشامخة بكبرياء، وإلى جميل هندستها ودقة إنشائها وزخرفها - أين هي أبنيتنا الحديثة من هذه .. وكـم المباني اليوم تبدو هزيلة إذا ما قورنت بها، بالرغم ممّا وقّرتـه التقنية الحديثة من أدوات مساعدة شتّى لم تكن موجودة بالأمس البعيد ! بارك الله تلك الأيدي التي كانت تُطوّع الحجر بالإزميل، وترصفه حجرة حجرة بكل دقة وإتقان ..

بئس أيام حاضرة أمانت في الناس روح الإتقان في العمل، إذ ما نراه اليوم من أعمال إنشائية حديثة يبعث على الحزن والأسى !..

تلك الأبنية التحف المهجورة ، أراعيها ساهماً متسائلاً .. كم من الأسر يا ترى تعاقبت عليها، كم من الأحزان والآلام، وكـم من الأفراح .. ضمّتها جدرانها المستوحشة اليوم، كم من آمال وأمنيات سمعتْ همسها تلك الجدران .. وكأني بها تسأل .. أين أولئك الذين ضممتهم بين أضلعي، وخبّأت أسرارهم سنين إثر سنين، فكنت لهم السـتر الأمين؟! ألا يأخذ الحنين بأحد منهم، أو من أحفادهم، فيزورني ليتمثّل ما مضى من حياة آبائهم وأجدادهم في منفسح غربي ورُدهات !..

كم هي حزينة بالصمت يكتنف جنباتها، وبالغبار والسخام يغطّيانها، تلك الأبنية المنتصبة شامخة إلى اليوم ! لا عزاء لها سوى العصفير والحمائم تحطّ على نوافذها وشرقاتها، متّخذة فيها أعشاشها، تسري عنها حزنها وتؤنس وحدتها وقد هجرها أصحابها، ولم يعد هناك من يكثرث بعراقتها، ولا بما تخبئه من حكايا وقصص !

بالأمس مررت ببناء من تلك الأبنية، تعمل المعاول على هدمها .. وكأني بتلك المعاول لا تمحوا أثراً آية في الجمال والصنعة اليدوية، لن يتكرر، فحسب، بل تمحوا كذلك تاريخاً حافلاً للذين ضمّهم ذاك البناء أمداً طويلاً، وظلّهم بأجنحته الرحبية .

واليوم .. إذا بي أصادف في طريقي عمارة تقارب الثمانين من عمرها، لطالما نظرتُ إليها بإعجاب بالغ كلما مررت بها، متمنياً أن تلقى شيئاً من عناية أصحابها ..

أراها اليوم والمطارق تعمل لتفنيها، وأحد العمّال يُنزل ضربات قدومه المتلاحقة، بجماع قوّته، على واحدة من حَجراتها المتراصّة في واجهتها الأمامية يريد أن يخلعها، وهي صامدة تأبى الانصياع .. حتى تهالكت وهوت أمام ناظريّ من الطابق الثالث إلى الأرض .. وإذا بدمعة ثخينة من عيني هوت معها .

حدّثت نفسي لحظتها : إن كان الاستهتار بعراقة تلك التحف، التي لن يكررها الزمان، لا لشيء سوى المال، أما كان من الأجدى - أسوة بالقليل من مثيلاتها - أن تشملها يد الرعاية فتزيل ما تراكم على جدرانها عبر السنين من طبقات الغبار، وتعمل على ترميم ما نالها من تشويه بمرور الزمن، فتستعيد حلتها ورونقها كما كانت في أول عهدها ..؟! أما كانت ستُغدق على أصحابها غير الأبهين بتاريخها وجمالها، الربح المرجو من استبدالها؟! أم إن الربح حينها لن يكون وافياً لإشباع سلطان المال الطاعي على النفوس الجشعة؟!!

ثمة أبنية من تلك التحف، مازالت قائمة على أساساتها، مشوّهة، مسربة بالأوساخ، تبعث على الحسرة في نفس الناظر إليها .. ولا من جهة مسؤولة - للأسف الشديد - قادرة على إجبار مالكيها القيام بترميمها وإعادة رونقها .. ولا هي قادرة على أن تضطلع بذلك في حال عادت ملكيتها للدولة !! فتبقى تلك التحف، تابعة لمديرية الآثار، لا يُسمح بإزالتها، متروكة تُشوّه المدينة بحالها المتهاكمة .. ولا من سائل !! أمر يدعو إلى السخط والعجب !!

والأسوأ .. الذي كم يحزّ في النفس .. أن بعضاً من تلك التحف يُهدم .. وتُسوّر أراضيها، لتبقى لسنين طويلة دون إقامة أي بديل عليها !!!

مهما يكن من مسوّغ أو عذر لذاك الهدم واللامبالاة .. فإنه لا يمكن أن يكون مقبولاً البتّة للغيورين على عراقة مدينتهم .

٢٠٠٤ - ٨ - ١٠

الشجرة الظليلة ..

في المكان الذي أستقلّ منه الحافلة كل يوم للذهاب إلى عملي، تقيم شجرة عبلّة ذات ظلال وارفّة .. لها جذع ضخم أجوف، يكاد يتسع لطفل. وللجذع كوة صغيرة واطئة، يمكن للمرء من خلالها مدّ ذراعه إلى جوفها المنفتح في أعلاه نحو السماء. وعند مستوى ليس ببعيد عن الأرض، تتفرّع أغصانها، يتشابك صغيرها بكبيرها في عناق دائم. لكم أنا سعيد، كما هم الآخرون، بهذه الشجرة الظليلة .. كأنها أم تحنو على كل من يفيء إليها ليحتمي من أشعة الشمس اللاهبة، تحت أوراقها الخضر الدّغلة .

لَمَ فجعتُ اليوم وأنا أنظر إليها تننّ من نار تعسّس في أعلى جذعها، وقد نالت من أحد أغصانها الكبيرة، فالتوى هالكاً بأوراقه الخضر نحو الأرض، متشبثاً بأمه ببقية من لحاء رقيق على وشك أن ينقطع . كان يوماً حزيناً لنا جميعاً .. نحن الذين نستظل هذه الشجرة كل يوم، ونسعد بمرآها مزدانة بخضرتها الزاهية. الكوة الصغيرة التي يمكن للمرء من خلالها أن يطلّ على جوف ساقها، باتت مكسوة بالسخام، ورماد الغصن الهالك متناثر على الأرض حول ساقها، لكن الدخان الذي كان لَمّا يزل يتصاعد من أعلاها، كان مبشراً بزوال النار الأكل التي كانت مضطربة في بطنها. وبالرغم من أن الشجرة كانت لاتزال واقفة بحلّتها الخضراء، دون أن تتمكن السنة الذهب الإتيان سوى على غصن واحد من أغصانها العديدة، إلا أن هذا الغصن يمثلّ لنا، نحن الذين نستظلها، واحداً من أبنائها .. فكيف لا نحزن .. ! أصلح الله اليد العابثة، إن كان صاحبها لمّا يزل يافعاً جاهلاً، وسلّط عليه - إن كان راشداً - الشمس يتلظى تحت لهيبها في مكان قفر يلوب فيه على شجرة يحتمي بظلها فلا يجدها، لعله يدرك سوء ما اقترفت يداه .

بُعِيد أيام من الحادثة، انفتحت ثلثة عريضة امتدّت ما بين الكوة وأسفل ساق الشجرة المنكوبة، لتكشف عن نفايات كانت مكّسة في جوفها بفعل أيادٍ كانت قد رمتها فيها - على مرّ السنين - من خلال تلك الكوة الصغيرة. وما هي إلا أيام ، وإذا بالمشرفين على تنسيق معالم المدينة، يجنّثون الشجرة حيّة، دون مراعاة لسنيّ عطائها الطويلة، بدل أن يقوموا بتنظيف جوفها ورعايتها، لاسيّما أنها كانت واعدة بدوام خضرتها .. رغم ما حلّ بها..!! مازالت بقية من جذعها المتشبث بالأرض، باقية .. كلّما نظرت إليها، وأنا أنتظر قدوم الحافلة ، غمرتني حسرة شديدة .

٢٠٠٤ - ٦ - ١٠

أبو هشام ..

كان وما زال من المألوف في مدينة حلب، أن يثابر كثيرون من المسنين، بعد تقاعدهم عن العمل، على ارتياد حديقته العامة، يُمضون فيها سويعات من النهار، يتجاذبون خلالها أطراف الحديث وهم ينعمون بجوها اللطيف .

في أحد أيام عام ١٩٦٣، ثلاثة أصدقاء من أولئك، كانوا جالسين جنباً إلى جنب على مقعد من مقاعد الحديقة، وإذا بأحدهم يقول لصاحبيه :

« انظرا إلى تلك الأم وأبنائها.. يا أخي الأجانب غير شكل...! » فيوافقه أحدهما :
« إي والله.. » وإذا بالآخر يقول لهما :

« سأقوم إليها لأنقل لها إعجابنا بها » فيقول له أحد صاحبيه :
« من أين أتتك هذه الجرأة التي لم نعهدها فيك مع النساء يا أبا هشام، وأنت مدير مدرسة وقور؟! فيجيب :
« أتتني بعد التقاعد .. والآن ترون » .

يسير أبو هشام إلى الأم وأبنائها، يحييها مصافحاً وهو يشير نحو صاحبيه ، فتردّ التحية بأحسن منها مع ابتسامة عريضة ، ويتحاوران لدقائق بمودة تبديها تعابير وجهيهما .. والصاحبان ينظران مستغربين الأمر دهشين دون أن يتمكنوا من سماع ما يدور من حوار .

يودّع أبو هشام الأم ماسحاً بيده على رؤوس أبنائها ، ويعود إلى صديقيه ليقول :
« نقلتُ لها إعجابنا بما رأيناه فيها من صورة للأم المثالية، وقد فوجئتُ بإتقانها العربية »

ينبري أحد الصديقين قائلاً « ده حاجتك بقا طلاع من هالبواب ، لا بدّ أنها من معارفكم العائلية » . فيقول أبو هشام « أم هشام خالة زوجها » .

الأم .. أمي ، والأبناء .. أنا وشقيقاي .

كانت صُدفة ..

في أحد الأيام، تعطلّ لديّ جهاز استقبال القنوات الفضائية، فما كان لي من خيار سوى متابعة إحدى القناتين الأرضيتين، فوجدتني أمام بداية حلقة من حلقات برنامج (ابن البلد) ضيفتها الدكتورة ريم هلال .. كيفية البصر، لم أسمع عنها من قبل . تابعْتُ الحلقة مأخوذاً معجباً . وإذ ذكرت الضيفة ، في أثناء حديثها ، أن لها كتاباً بعنوان " البصر والبصيرة " يحكي سيرتها الذاتية ، طفقت في اليوم التالي أبحث عنه في محال بيع الكتب إلى أن عثرت على نسخة .

أبثّ دموعي إلا أن تسيل - وأنا أنتقل من صفحة إلى صفحة - حتى فرغت من قراءة الكتاب، وذلك لما كابته، هذه الإنسانية الرقيقة، من معاناة وصبر، إلى أن كلّت مسيرتها بالوصول لما صبتُ إليه. ومما زاد من إعجابي بها، وتقديري لها، ما شفتُ عنه سيرتها من نفس طيبة نقيّة ، وفكر نيرّ، وبصيرة وقادة ، وحسّ إنسانيّ مرهف . أفلح سعيي في الحصول على رقم هاتفها. عرّفتها بنفسي، وأعلمتها برغبتني في إرسال أسطر تحمل إليها انطباعي عن كتاب سيرتها .. وإذا بصوتها الناعم العذب ينسّم في سمعي، مُرحّباً بتلقي أسطري .

من خلال تبادلنا بضع رسائل عبر الفاكس، إذا بصداقة ينذر مثيلاتها في هذا الزمن، قد نشأت بيننا - صداقة صادقة .. صداقة علّونا بها إلى عالم الحب السامي .. حبٍ لاتزال شعلته متقدّة منذ عشرين عاماً ، بين الشهباء ، وعروس الساحل .

لقد كانت صُدفةً في عمري، ولا أطيب منها صُدفة ..

وها هي الأسطر الأولى التي أفضيتُ إليها :

ريم الإنسانية ..

شاهدتك وسمعتك في (ابن البلد) ، وعرفتُك من خلال " البصر والبصيرة " فأحسست أنك واحدة من قلائل جديرين بلقب إنسان ، ولا أشكُ في أن هذا اللقب لهو أجلّ لديك وأسمى من لقب دكتورة .

بينما كنت أشاهدك وأسمعك، لفتني منك حديثٌ رصينٌ أخاذ، وصوتٌ رقيقٌ عذب، ينمّان عن رهافة ونقاء . أمّا فيما كنت أقرأ " البصر والبصيرة " فلم تفارق

الدموع عينيّ - وأنا أنتقل من سطر إلى سطر، ومن صفحة إلى صفحة - تأثراً من إفصاح راقٍ عن مشاعر صادقة بالعرفان اللامتناهي بالجميل لأولئك الذين كانوا أخيراً طبيّين معك، ولوالديك اللذين عانيا الكثير من أجلك، فكنت الفرحة الكبرى لهما. لقد كنت بعرفانك لهما، ابنةً بارّة .. حفظتُ جميلهما في مقلتيها .. وكانا نور قلبها وعقلها وعينيها.

ويأتي العتب على قدر المحبة :

لقد لمستُ شيئاً من قسوة في قلمك على بعض أترابك، فيما مضى، وغيرهم ممّن لم يكونوا أخيراً معك، فرأيتُ - وأنت الإنسانية - أن ليتك قد أوجدت لهم أسباباً مخففة، فتكوني أكثر رافة بهم إمّا استطعتِ صفحاً .. فقلّة همّ الذين حباهم الله ببصيرة أولئك الأخيار .

كم أبكتني رسالة السيدة خديجة حكيم ..

وكم أبكتني وأنت تضيئين سطور من غدا مصطفىك، بذاك البوّح الراقي ..
وكم تأثرتُ وأعجبت بما ختمت به سيرتك .. ما أجملها خاتمة ..
وما أجملك بإنسانيتك الثرة وبصيرتك المتوهجة ..

بكل المحبة والتقدير والاحترام .. أنحني لك .

صادق السباعي

حلب ٢٩ / ٩ / ٢٠٠٣

في الطبعة الإلكترونية عام ٢٠١٥ لكتابها " البصر والبصيرة " أبدلتُ الكاتبة فصلاً كان قد ورد في الطبعة الأولى الورقية ، على الرغم من إلحاحي عليها حينها، طالباً منها أن لا تقوم بإبداله - ذاك الفصل الذي أحببته جداً، والذي زاد من إعجابي بها - إلا أنها أصرت على إبداله بما يلي :

« قارئ .. أمّا وقد قاربتُ سيرتي على نهايتها، لا شك أنك وصلت إلى الذروة

في تساؤلك :

" وماذا عن الحب لدى ريم ؟! " وهنا سرعان ما أجيب :

إنني حبيته حقاً، حبيته حتى الأعماق، لأن الحياة إذا ما حكمت عليّ بالتجابه معها عبر تلك السنوات، فإنها لم تنسَ بالمقابل أنني واحدة من البشر، أمتلك من الأحاسيس والمشاعر ما يكفي لكي أكون مُحبةً وحبّية. إنني حبيته الحب في أكثر من حكاية، لكن

ما إن كانت كل واحدة تتوهج بأملٍ حتى تأخذ بالانطفاء والأفول رماداً في بحار العدم، وكأنها لم تكن يوماً .

أما بشأن حكايتي الأخيرة التي أعيشها منذ سنوات، والتي بدأت عام ٢٠٠٣، فإن الله اصطفى لي إنساناً حدّثني حدسي منذ اللحظة الأولى، بأنه سيكون بجانبني ما حييت - إنساناً عرفني مصادفةً وهو يشاهدني عبر برنامج متلفز، كَرَّمْتُ من خلاله، وازداد معرفتي بي بعد أن قرأ الطبعة الورقية الأولى من كتاب سيرتي هذا، فسعى إلى الاتصال بي هاتفياً من مدينة غير مدينتي، فكان ذلك فاتحةً لصداقة حميمة نمت فيما بيننا بالمهاتفة حيناً، والتراسل أحياناً .. شعراً ونثراً، حتى أضحت واحة خضراء ألوذ بها من رمضان حياتي .

وفي يوم، وقد مضى على صداقتنا ما يقارب العام، أدلى إليّ عبر الهاتف بما كان يضمّره لي من رغبة في أن يلتئم شملنا بالارتباط . حاصرته فرحتي، ولذت بالصمت لبرهة لا أدري ما أقول، وأخبرته أنها لحظة لن تمحى من ذاكرتي، سأضمّها إلى أسعد لحظات حياتي. حلّقتُ بالبهجة عبر السويعة التي استغرقها تحاورنا، إلى أن رأيتُ نفسي وإياه، ومنذ الخطوة الأولى، مكبلين بكل ما يمكن أن يعوق تقدّمنا نحو ما نصبو إليه .

والآن .. وبعد مرور هذا العمر على حكايتنا، وتخطّينا الواحدة تلو الأخرى من الصعاب والعراقيل بما لا يمكن تصوّره من الغزارة والألوان والتفاصيل .. ارتأينا أن نسلم أنفسنا للقدّر الذي ربما لم يشأ أن يجمعنا في بيتنا الوردي الجميل، فنقتصر في أمرنا على أن نبقي زوجين راحيين حبيبين، ونؤجل تحقيق أحلامنا الذهبية إلى جنان الخلود التي ستكون بمشيئة الله أكثر رافةً بنا، فتضمّننا عصفورين غردين، أو غصنين متعانقين أبدأً في خميلةٍ من نور » .

ارتأينا ، أنا وريم ، أن نضمّ رسائلنا المتبادلة في كتاب ، فحملت النسخة التي نصّدتها هي عنوان " إليّ وإليه " والنسخة التي نصّدتها أنا عنوان " إليها وإليّ " ، وذلك بدءاً من رسالتي الأولى لها بتاريخ ٢٩ / ٩ / ٢٠٠٣ حتى آخر رسالة بتاريخ ٢٠ / ١ / ٢٠١٠ ، ليستمر بعددٍ تواصلنا عبر هاتفينا المحمولين .



ريم ووالدتها بُعيد مناقشة رسالة الدكتوراه
١٩٩٨

آباء وأبناء (١)

كثيراً ما يمانع الآباء اقتران أحد أبنائهم بالشريك الذي اختاره ليكون زوجاً له، بحجة أن اختياره نابع عن العاطفة دون العقل ، أو غير مراعاة للأعراف الاجتماعية .. وذلك بحجة أنهم ذوو تجارب حياتية تجعلهم يتنبأون بمستقبل ذاك الاقتران، فينغصون أيامهم وأيام أبنائهم، وقد يفضي ذلك بالأبناء إلى حالة من الإحباط واليأس، أو إلى زواج الأبناء – المغضوب عليهم – بعيداً عن الأهل، وتخبّطهم في معترك حياة لا يرحم إذا ما كانوا شبّاناً في مقتبل العمر، وإلى مقاطعة أو جفاء، لا جدوى منه لأي من الطرفين .

لا أحد ينكر حق الآباء في إبداء وجهات نظرهم، وإسداء النصح لأبنائهم، وتبيان ما يمكن أن يواجههم في المستقبل .. بل إن ذلك من واجبهم .. لكن ليس من حق الآباء مصادرة عواطف وأحاسيس أبنائهم الساعين إلى الزواج، في حال هم ليسوا موقنين من أن ذاك الزواج سيؤول إلى الفشل ..

يا له من إجحاف بحق الأبناء، رفض الآباء زواج أحد أبنائهم بشريك اختاره، مراعاةً لأعراف اجتماعية فارغة، وإجبارهم على التماشي معها .. فإن ذلك لن يقدم للأبناء شيئاً سوى الألم والإحباط . من الغريب أن يحسب الأهل حساباً لتلك الأعراف غير آبهين بمشاعر وأحاسيس أبنائهم ! يا لها من أنانية وسلطوية في الآباء تدفعهم إلى إجبار أبنائهم الانصياع لهم، بحجة مراعاة أعراف تنافي المنطق السليم، أو الدين القويم، وذلك على حساب قلوب متآلفين !

أيّ حكمة في موقف الآباء حين يقاطعون أبناءهم، أو يحرمونهم من إرث، بسبب زواجهم غير المرحب به ! هل معاقبة الآباء لأبنائهم على ذاك النحو، سيوفر للأبناء السعادة المرجوة، ويترك أثراً طيباً في نفوسهم ؟! وفي حال جارت الأيام على الزوجين الفتيين، كيف لذاك أن يثلج صدور الآباء بدل أن يسارعوا إلى العون إن كان في مقدورهم !

لنبد النصح لأبنائنا، لعلهم أن يقتنعوا بما نراه فيأخذوا به، ولنذع القرار النهائي لهم فيما يخص مستقبلهم، إذ إنه ما من نفس تتقبل القسر أو الإكراه .. ولنتذكر أنفسنا يوم كنا في أعمارهم .. فالحياة خير مدرسة لهم، إمّا أن يتجنبوا الوقوع ثانية فيما قد يقعون فيه، وإمّا أن يتحملوا عواقب ما أوصلوا أنفسهم إليه. وفي كلتا الحالتين علينا الوقوف إلى

جانبيهم قدر المستطاع، لعلنا بذلك أن نخفف من مصابهم، بدل التشقي أو اللامبالاة ..
فندراً عنهم مزيداً من التخبط أو الضياع .

ولكل حبيبين غير أبهين بشيء سوى الوفاء لحبهما وتكليله برباط الزوجية، فإني
أحيي شجاعتهما واحترامهما للوعد الذي قطعاه على نفسيهما، وأرجو لهما التوفيق ودوام
السعادة .

* * * *

آباء وأبناء (٢)

ليس أضرّ على أحاسيس ومشاعر الأبناء - ولاسيّما إن كانوا أطفالاً - من
المشادات والمشاحنات الكلامية، تلك التي تتكرر بين الأزواج في حضرة أبنائهم .

فهلاً حرصتما أيها الأب وأيتها الأم على سلامة نفوسهم النقية وقلوبهم الغضة،
ودرأتما عنها - بضبط النفس - أذى الابتئاس والانكسار، ولاسيما في أثناء تواجدهم في
حضرتهما، هذا إن ليس بمقدوركما نسيان خلافاتكما من أجل عيونهم ..

وإذا كان لا بدّ من انفصالكما، وحتّمت الأحوال إقامتهم مع أحكما، فليترك لهم
حرية التنقل بينكما رافةً بمشاعرهم ، إذ ما أسوأ أن يناكف أحكما الآخر، ضارباً
بمشاعرهم عرض الحائط ، فيفسرهم على ألا يتواصلوا مع أحكما ، متى شاؤوا وكيفما
أحبّوا ..! ألا تكفيهم نكبة انفصالكما ، ليأتي أحكما، فيزيد من شدّتها !!

* * * *

نكوص الحبيب ..

إن شعلة الحب المتأججة في نفس كلا الحبيبين الصادقين في مشاعرهما، تدفعهما مع بدايات العلاقة، إلى الإحساس باستحالة الاستغناء عن بعضهما، وبالرغبة الجامحة في تنويع حبهما بالزواج، فيتعهدان مستهينين بأي عائق قد يواجهانه .

ومع مرور الأيام واستمرار التواصل قبل الزواج، تخبو تلك الشعلة المتقدة الأخاذة التي أحساها في البدايات، فتجنح العلاقة إلى الرتابة .. ويحدث أحياناً أن ينكص أحد الحبيبين بوعده بالزواج، فيكون ذلك أمراً مستتكرًا من الآخرين، ناعتين الناكص بأسوأ الصفات .

لكن .. إن توخينا الموضوعية في الحكم، لربما عذرناه أو عذرناها، وقد قيل " لا تسألوا الناس أسألوا الظروف " . فأمر الزواج أمر مصيري في حياة الإنسان ليس من الحكمة الاستهانة به.

ففي بعض الحالات.. يشاء القدر أن يلتقي أحد الحبيبين بإنسان يراه أكثر مناسبة لحاله من الحبيب، لبناء حياته الزوجية على أسس متينة، فينكص بوعده مرغماً وهو يشعر بالحزن والخجل لأنه أخطأ في حق الحبيب وتسبب في جرح مشاعره .. لكن ما باليد حيلة فهو أو هي أمام تحديد مصير . فعلى الطرف الآخر أن يتفهم الأسباب التي أدت إلى النكوص بالعهد، رغم صعوبة الأمر، وأن يتمنى لحبيبه التوفيق فيما هو مقدم عليه . وبذا يكون قد تفوق على ذاته، وبرهن على صدق حبه.

أما بعد الخطوبة، ولاسيما بعد عقد القران .. فلا عذر لأحدهما للنكوص بعهد الزواج المقدس عهد الوفاء والإخلاص .

* * * *

جَدِّي إِلَى أَيْنَ ..

تألّمتُ وحزنتُ جداً لمعاناة الزوجة لميس في رواية " جَدِّي إِلَى أَيْنَ " للكاتبة منى تاجو، تلك المعاناة التي تنسحب على الكثيرات من النساء .

إن قارئ القصة ممّن هم بعقلية الزوج حكمت، لا بدّ أن يتألم ويحزن أيضاً لما آلت إليه حال الزوجة لميس، لكن سلوكه في الواقع، إن كان زوجاً، ربما يماثل سلوك الزوج حكمت، أو يفوقه سوءاً. فالأقوال كثيراً ما لا تتوافق مع الأفعال ! وإذ انتهيت من قراءة الرواية رأيتني منساقاً لأقول : فترة الخطوبة في عُرف الشرقيين المحافظين، يجب ألا تطول، ويتحتم على كلا الخطيبين أن يكتشفا، في فترة قصيرة، ما إذا كانت طباع الشريك المنتظر تناسب طباعه وعقليته، وفي غالب الأحيان - بحكم العُرف السائد - لا يجوز أن يجتمعا معاً من دون وجود أحد من ذوي الخطيبة . ففي حال كهذه، لا يتسنى لكل منهما التعرف جيداً على طباع الآخر والتيقن من عقليته، لاسيّما وأن كلاً منهما يريد أن يظهر أمام الآخر على أحسن وجه، تصرفاً وادعاءً.. إلى أن يتم الزواج.. فيذوب الثلج ليبين المرج .

مهما طالّت فترة الخطوبة فلن تُمكن الخطيبين من فهم بعضهما بعضاً إلا بعد أن يصبحا زوجين تحت سقف واحد. وما أشبه الأمر بالبطيخة بعد قطعها .. إما حمراء أو بيضاء أو بين بين . فالرجال بعقلية وتصرفات الزوج حكمت، كانوا وما زالوا وسيبقون. فالأمر متعلق بالبيئة المحيطة، والتربية الأسريّة، وثقافة المرء، وتكوينه النفسي. فعلى الشبان ذوي العقلية السلطوية أن يعوا أن الكثيرات، منذ زمن بعيد، قد تعلّمن وتثقّفن، ولم يَعدن يتقبّلن سلطة الرجل غير القابلة للنقاش .. إذاً .. عليهم أن يبحثوا عن شريكات يتقبّلن طباع السلطوية ، فهنّ مازلن متواجدات ، لا أن يُمثّلوا دور الإنسان المتحضّر المتفهم لواقع العصر، من أجل أن يوقعوا من يرغبون بهنّ في شراكنهم ، ليتباهوا في محيطهم الأسري وبين معارفهم بأنهم تزوجوا إنسانة متعلّمة مثقفة متحضّرة. وبالمقابل على الزوجة مهما علت درجة تعلّمها وثقافتها، أو منصبها الوظيفي، أن تتفهم أنها تعيش في مجتمع له أعرافه المتجذرة فيه، وأن طبيعة تكوين الرجل تختلف عمّا هي عليه في المرأة، فلا تغالي في التعامل مع زوجها ندّاً لند. لقد أحسن د. جون غراي في كتابه "الرجال من المريخ والنساء من الزهرة" تبيان اختلاف ذاك التباين في طبيعة كل منهما.

* * * *

أم نضال ..

وأنا مُكبّ على حاسوبي في مكان عملي، كانت تدخل عليّ حاملّة قهوتي الصباحية بوجه مشرق، مصبّحةً، وعلى ثغرها ابتسامة حلوة، ثم ترفع الفنجان من على الصينية لتضعه إلى جانبي على المنضدة. خلال هذي الثواني المحدودة، كان لا بدّ من أن ألثقت عن الحاسوب شاكرًا، مواكبًا حركة يدها وهي تحطّ بالفنجان. ثم تعود من ثم إلى عملها اليومي في المحافظة على المكتب - بغرفه الواسعة العديدة - دائماً نظيفاً مرتباً، وتلبية ما قد يطلبه منها زملاء العمل بين فينة وأخرى من فنجان قهوة أو شاي .

لا أدري إن كانت تلاحظ عادة التفاتي عن الحاسوب إلى يدها وهي تنزل الفنجان على مكتبي، كلما أتنني به بعد دقائق من وصولي صباحاً، وعند الواحدة ظهراً. أتراه التفاتي كان يصدر عن إعجابي بتلك اليد البيضاء الملساء الرقيقة ، بأناملها الطويلة الرشيقة وأظافرهما النظيفة الجميلة دونما طلاء ، أم تقديرًا وإكباراً لدأبها على عملها المرهق ، وإنجازه بإتقان على أكمل وجه ، دونما تشكّ أو تذمّر، بالرغم من حالتها الصحية الواهنة ؟ إنه الإعجاب والتقدير معاً لتلك اليد .. فصاحبته أمٌ لثلاثة أطفال ، أصرّت - بعد سنوات من زواجها - على أن توازر زوجها في القيام بمتطلبات الحياة، وهي التي ليس لها سابق عهد بالعمل .

لم يطل بقاء أم نضال معنا، فقد غادرتنا لأن زوجها، كما قالت، أصرّ على تركها العمل. لكن أم نضال كانت مصرّة على ألا تغادرنا إلا بعد أن تأتينا بمن يشغل مكانها ، وقد فعلت.

سلامي إليك يا أم نضال .. أينما كنتِ .

* * * *

صورتان ..

القيّمة على شؤون المكتب الذي أعمل فيه، امرأة تجاوزت منتصف العمر، تكّد من أجل لقمة العيش . لها ابنة أخ في السابعة أو الثامنة من عمرها، رقيقة العود، نائية عن أمها بسبب طلاق والديها، تأتي بها عمّتها إلى المكتب في بعض الأحيان، لتعاونها في أعمال التنظيف .

يا لوجه الطفلة الباش .. وابتسامتها الحاضرة وهي تعمل بكل اندفاع وسرور ورضى . رأيتها اليوم غافية تفترش – أمام عمّتها – منشقة صغيرة مُدّت على الأرض !
تبادر إلى ذهني أولئك الأطفال اللاهون حول أمهاتهم ، ثم الغافون ملء عيونهم على أسرّتهم الوثيرة بعد أن تعبوا من اللعب.
صورتان من صور الحياة .

٢٠٠٩ / ٥ / ١٤

* * * *

حكى لي صديقي ..

في أثناء سيره - عائداً إلى بيته من عمله المسائي - لفت نظره في واجهة محل لبيع الحلوى، قالبٌ من الحلوى على شكل قلب زُيّن أعلاه بالجلاتين الأحمر، وقد شكّلت عليه بالكريما البيضاء عبارة (I Love You) فتذكّر صديقي أن اليومَ عيد الحب، فأحبّ أن يفاجئ زوجته وأولاده في تلك الأمسية بجلب ذاك القالب إليهم .

دخل البيت، فرأى آنسة الدروس الخصوصية، جالسة مع أفراد أسرته يتسامرون، وقد أنهت إعطاء الدرس لابنته. ألقى عليهم تحية المساء، وهو يضع قالب الحلوى أمامهم على الطاولة، مُرحباً بالآنسة، ومثنياً على الجهد الذي تبذله في تدريس ابنته، إذ كان قد لمس الفائدة الكبيرة التي تجنيها ابنته بعون هذه الآنسة التي يعلم خلفيتها الاجتماعية ممّا حكته له زوجته قبل بدء الآنسة بالتردد على المنزل .

كانت الآنسة من أسرة محافظة، في العشرينات من عمرها، حاصلة على شهادة معهد إعداد المدرسين. تُعين والدها في الإنفاق على الأسرة من عملها في التدريس في مدرسة حكومية، وإعطاء الدروس الخصوصية، متنقلة من بيت إلى بيت، لتعود ليلاً منهكة إلى المنزل، فتشرف على حل الوظائف المدرسية لإخوتها الصغار. محتشمة في ملابسها وذات حجاب شرعي، وليست على شيء من جمال الشكل. ولتلك الأسباب مجتمعة، كان يراها جديرة بالتقدير والثناء.

وفيما كان الحديث دائراً في تلك الجلسة، أتت زوجته بفناجين الشاي والأطباق اللازمة لتناول الحلوى، فبادر هو بتقطيع القالب وتوزيع القطع لكلٍ في طبق .
بُعِيد تناولها ضيافتها، أبدت الآنسة شكرها وغادرت. لكن ما إن أغلقت الزوجة باب المنزل، حتى راحت تصبّ على زوجها كلماتها الاحتجاجية بلهجة عصبية غاضبة :

- هكذا إذاً .. تقوم بتقطيع الحلوى لتقدمه إليها بيديك .. لا بدّ وأنت أعجبت بها ..
- نعم أعجبت بها، لكن ليس الإعجاب الذي تظنين .. ما قمت بذلك إلا من باب التقدير لجهدا الملحوظ مع ابنتنا ..
- تقديم الضيافة من مهامي .. ليست من مهامك ..
- أحياناً أقدم الضيافة لضيوفنا بنفسي ولا تُبدين أي اعتراض، فلماذا اليوم ثارت ثائرتك !!؟

- أولئك الضيوف من الأقرباء أو الأصدقاء، لكن هذه فتاة غريبة عنك، لا تربطك بها

أيّ صلة .. لا تحاول التبرير .. لا شك في أنك أحببتها .
- شفاك الله يا امرأة .

في أيام تلت، لم تتوان الزوجة - إثر خلاف شديد مع زوجها - في أن تشيع بين أهلها وصديقاتها، أن من سيئات زوجها، حبّه لمُدْرسة ابنته الخصوصية !!
قلت لصديقي « لشدّ ما يعجبني في زوجتي، ثقتها اللامتناهية بي، وكم أقدر لها ذلك » فقال :
« هنيئاً لك بزوجة تستثنيك من طبع لا تستثني منه معظم النساء معظم الرجال ! » .

* * * *

إِتْقَانُ الْعَمَلِ ..

لماذا لم نعد نرى عاملاً أو صانعاً في سوريا يعمل بضمير حي في تنفيذ العمل الموكل إليه سواء في القطاع العام أو الخاص .. بل جلّ همهم هو إنجاز العمل بأسرع وقت كيفما اتفق ليقبض أجره وينصرف لعمل آخر دونما أدنى اهتمام بإِتْقَانِ العمل الموكل إليه ..

كم تتّضح اللامبالاة بتوخي الإِتْقَانِ، في ما نراه في تنفيذ أعمال توصيل شبكات الكهرباء، والصرف الصحي، والهاتف، وتعبيد الطرق، ورصف الأرصفة، وإكساء الأبنية وشتّى الأعمال الأخرى .

ولا تقتصر اللامبالاة على العمال .. بل وعلى المهندسين المشرفين، لاسيما إن كانوا موظفين في المؤسسات العامة، وعلى مدراءها العامّين، ومن ثم الوزراء، الذين لا يعني معظمهم سوى قبض مرتباتهم والحفاظ على سياراتهم الموضوعة تحت تصرفهم، وما يرتعون فيه من امتيازات مناصبهم .

قلّة المردود المادي أو تواضع الأجر، لا يبرر عدم توخي الإِتْقَانِ في العمل، فصاحب الضمير الحي والذي يحترم ذاته، لا يرضى أن ينجز عملاً غير متقن حتى لو طُلب منه ذلك .

قال ﷺ : ((إنّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه))

٢٤ - ١٠ - ٢٠٠٧

* * * *

ريشةُ فنّانٍ مُبدع ..

البشر مغيّبون في لوحات يوسف عقيل، ذلك لأن روحه، فيما أرى، تنشد الخلود والنقاء والجمال مُمَثِّلِينَ بالنور واليَمَام والنبات .

وإذا ما كانت النقوش الجدارية، وواجهات البيوت – التي تحاكي الطراز المعماري القديم – حاضرة في لوحاته على نحو لافت ، فذلك إحياءً وتقديرٌ منه لطراز معماري لن يكرره الزمان.. وحيناً لزمان مضى كان متّسماً بالدفء والتلاحم بين أناسه. إن تشكيل موضوعات لوحاته، بألوان هادئة سديمية، موزعة بحرفيّة ريشة فنّان مرهف، لا بدّ من أن يكون لكل ناظر .. محطّ إعجاب كبير .



رسالة لم تصل ..

فيما كنت أقرأ، للمرة الثانية، كتاباً للأديب د. بديع حقي كنت قد قرأته للمرة الأولى منذ بضع سنين، عادت لتنتابني مجدداً عاطفة غامرة نحو هذا الأديب الدمشقي، فإذا بي أمسك بالقلم وأكتب :

أديبي الأثير ..

أيّ عذوبة ساحرة في ألحان حروفك وأنغام بيانك يا بديع .. !
أيّ رهافة حباك الخالق حتى يغشى عينيّ دمع لا يكاد ينحسر حتى يفيض وأنا مبحرٌ
عبر خلجات نفسك .. أو مخلق مع ترانيم روحك .. !

أيّ بديع أنت يا بديع .. !

كم أغالب نفسي لأواصل - دون توقف - قراءة نضيد كلماتك المنسابة جدولاً رقراقاً بين روابيك .. ولا من سبيل ! إذ يحول دون ذلك عميق تأثري وهيمان روحي برهيف إحساسك وسموّ مشاعرك. ما أراك إلا صائغ صناع .. بل ما أراك إلا عازف فذّ ، قوسك القلم وكمائك القرطاس. إن يك قلمي لا يرقى إلى جمال بيانك .. إلا أنني أرى روحك توأماً لروحي. ما أخرجنا إلى أدبك الرفيع ملاذاً لأرواحنا الضمأى للجمال في زمن الرداءة .. ها أنت تفرع إلى " جمرة الحرف وخمرة النغم " فتألف بينهما في كتاب .. لعلك تلقى الدفء والسلوى، ويلقاهما القراء معك .

وفيما أنا مخلق في علياء الأدب بما رُفّته، على الصفحات، من بيانك السامي .. انتابتنى رغبة لحوح لسماع صوتك عبر الهاتف، فأسألك عن حالك، وأبتك كلماتي تنقل إليك مالك في نفسي من فيض محبة جيّاشة - محبة قارئ يجالسك دفان منتشياً .. ينهل من أطايب نفسك وروائع عزفك وتساويرك .. وإذا بالهاتف الذي كنت آمل أن يجمع صوتي بصوتك، يجمعني بصوت من يباغتني بنعيك .. غامداً الحسرة في قلبي .. مستلاً دموعه تهمي من عينيّ .. فما رأيت من عزاء .. غير أن الله قد منّ عليك بأن أضحي تراب وطنك - كما كنت ترجو دائماً - مثواك الأخير . أسأله تعالى السكنينة لروحك في منفسح عليائه .. والسكنى لك في رحاب جنانه .. لعل الله - كما تمنيت في إحدى كتاباتك - قد استجاب لك بأن حلّت روحك في إهاب نحلة معطاء، وفسح لك فضاء جنته لتتنقل بين زهراتها الفوّاحة ، فرحاً ، نشوان ، بعد أن اتسق لك أن تُضحّي في حياتك ، كما

وصفت نفسك " أشبه بنحلة صغيرة معطاء، بين نحات الأدب – نحلة أزجت بعض شَهدِها وأحالتها قصائدَ وقصصاً وروايات " .

لم أكن عارفاً بالأديب د. بديع حقي قبل انجذابي إليه خلال حوار أجري معه في مجلة العربي منذ سنوات خلت، وإذ علمت خلال الحوار أنه قد ترجم أعمال الشاعر رابندرانات طاغور، إذا بذاكرتي تعود بي لمساء كنت فيه، في مقتبل شبابي، أتابع حواراً مُتلفزاً معه، يُجريه الإعلامي عادل اليازجي في برنامجه "المجلة الثقافية" ، فأذكر كم جذبني (البديع) حينها، بشخصه وحديثه.

بعد قراءتي الحوار في مجلة العربي، رحت أبحث عن كتاب سيرته الذاتية " الشجرة التي غرستها أمي" الذي زاد من تعلقي به لما لمست من إنسانيته .. وجمال أسلوبه ، فطفت أبحث عن مؤلفاته. حصلتُ على معظمها، ومازلت أبحث عما تبقى .

من كتبه التي حظيت بقراءتها، ولمست رفعة أدبه فيها، عدا الكتابين اللذين ذكرتهما آنفاً :

" حين يورق الحجر " ، " قمم في الأدب العالمي " ، و" التراب الحزين " الذي نال جائزة الدولة للقصّة عام ١٩٦١، وقُرّر للمدارس الثانوية السورية عام ١٩٦٧ .

لقد عُنِيَ هذا الأديب بأن تكون لكلماته وعباراته موسيقاً تنسجم والمعنى .. صاغها بأسلوب يتّسم بالأناقة .. بإحساس غاية في الرهافة ، كما تميّز بنقل تفاصيل الحركة المرئية إلى نصٍّ أدبيٍّ، بدقّة وبراعة .



□ د. بديع حقي يصادف رئيس الجمهورية الهندي في حفل دعي إليه بمناسبة انعقاد مؤتمر العلاقات الدولية في نيودلهي عام ١٩٨٧ .

مع سعيد عقل ..

كانت سهرة تلفازية مائعة مع سعيد عقل، ولا شك في أنه شاعر كبير .. بيد أن ما فيه من غطرسة وخيلاء ، للأسف الشديد ، يُخس من قدره .
ما يدعو إلى الأسف، أنه على الرغم من معرفته الواسعة ، ورغم تجاوزه التسعين ، مازال لا يدرك أن تواضع الكبير يزيد من تقدير واحترام وحب الآخرين له .

أكبرتُ في المُحاور القدير سعة صدره، ودوام ابتسامه، أمام ضيف يجيبه باستعلاء .. مستخفاً بأسئلته، غير ناظر إلى وجهه .

ومن خلال الحوار، تبين أن سعيد عقل لا يعجبه إلا ما يوحى بالعظمة والقوة والأنفة، ولا يُؤخذ إلا بالجمال الكلاسيكي الذي يَنشد الكمال، متعالياً على البساطة والعفوية رغم ما فيهما من جمال أيضاً. والغريب في عقل الذي يمجّد العلم ويدّعيه منهجاً لحياته، أن يبني حبه وتعلقه واهتمامه بالبلدان، في الزمن الحاضر، على أسس تاريخية موهلة في القدم، لمجرد أن أناسها البائدين قد قاموا في زمانهم بعمل مجيد، أو اعتنقوا فكراً، أو مقولة ما، أو أن تلك البلدان مازالت تضمّ نصباً تذكاريّاً ما .

لعقل أن يرى ما يرى، إلا أنه بما تقدم ذكره، أراه يدعو إلى الشفقة على الرغم من كونه شاعراً كبيراً .

وفي إجابة عن سؤال حول أدب جبران خليل جبران، فقد انتقده لما جاء في مطلع قصيدة " أعطني الناي وغنّ " آخذاً عليه أنه قد ساوى الله بالغناء، في قوله " فالغنا سرّ الوجود " . فعقل يرى أن سرّ الوجود هو الله. بيد أن جبران - كما أرى - لم يقصد سوى أن الغناء يحاكي أرواحنا، ويروّح عنا. وكأني بعقل المتدينّ يريد ليّ ذراع جبران الذي كثيراً ما تطرّق إلى سلوك المنتفعين - باسم الدين - من الرهبان . وكأني بسعيد عقل يغار من جبران !

من الشك إلى اليقين ..

أيام مراهقتي، وخلال شطير من مطلع شبابي، كنت أشك في وجود الله، وكان شكّي مبنياً على أساس أن لكل سبب لا بدّ من مسبب، فإن كان لا بدّ لهذا الكون - نظراً لاتساعه الهائل ونظامه الدقيق - من خالق مدبّر، فلا بدّ أن يكون هذا الخالق أعظم مما خلق، فلماذا على عقلي أن يقبل وجود ما هو أعظم من الكون، من دون خالق؟!

ربما لأكون في حلّ من الالتزام بالأوامر والنواهي الإلهية - وأنا في تلك المرحلة العمرية - كنت راضياً بذلك التفكير الذي لا ينافي، ظاهرياً، المنطق. وكنت أقول : إن كان الله موجوداً، فهو لن يحاسبني على عدم إيماني، وسيسامحني لأن ارتياحي حاصل جرّاء ما أوصلني إليه عقلي، ولأنني ملتزم بالمبادئ الإنسانية النبيلة، ولا أسبب أذية لأحد .

في فترة الشك تلك، استعرت من صديق، كتاب " قصة الإيمان بين الفلسفة والعقل والقرآن " للشيخ نديم الجسر، وما إن وصلت إلى صفحة منه قيل فيها إن الله واجب الوجود، حتى أغلقت الكتاب، وأعدته إلى صاحبه، وعددت ما فيه لن ينتشلي من شكّي، لأنني لم أكن أتقبل فكرة (واجب الوجود) من دون خطوات استدلالية علمية، تبرهن على وجود الله خطوة بخطوة. لكن رغبة قوية دفينة كانت باقية في داخلي تحثني على الوصول إلى الحقيقة .

في لحظة من اللحظات، وأنا في الثلاثينيات من عمري، ودون سابق مقدمات، تفكّرت في تكوين الجسد البشري ووظائف أعضائه المختلفة وطريقة عملها - ولم أذهب بتفكّري إلى ما هو أبعد - وإذا بي في لحظة، قد تحوّلت إلى مؤمن بوجود الله دون ذرة من شك، وأدركت أن العقل البشري مهما بلغ من الذكاء والعلم ، فقد حدّه الله بحدود ليس بمكنته - مهما بلغ من ذكاء - تخطّيها، ليحظى بسر الوجود الإلهي . فأضحيت على يقين تام بأن الله واجب الوجود . ولا ريب في أن رغبتني القوية الصادقة بالوصول إلى الحقيقة ، هي التي أوصلتني إليها، وإلا لتركني الله سادراً في شكّي .

بعد سنوات من إيماني و يقيني ، لمحت بالمصادفة في إحدى المكتبات، كتاب قصة الإيمان .. الذي أشرت إليه آنفاً، فاقتنيته، وكم استمتعت بقراءة ما حوى بين دفتيه -

بأسلوب قصصي شائق وجميل - من براهين حسابية، واستدلالات تجريبية .. تبين محدودية تصوّر العقل البشري، وأن الله، حقاً، واجب الوجود .

* * * *

رسالة لعلها تصل ..

الأديب الأستاذ حسين عبد اللطيف كعكة المحترم

كم أمتعتني وأنا أنتقل من فصل إلى آخر من فصول كتابك القيم "حيّ المشاركة " حتى وصولي إلى آخر سطر من فصله الأخير، وعيناى مخضلتان، تقول فيه :
« نحن مشارقيون .. نحن مشارقيون » .
لم يكن تأثري حزناً على زوال ذلك الحيّ الأشمّ فحسب، بل كان بقدر أكبر، لتمثلي شدة الألم .. وحرقة الحنين .. للذين ألباك وأنت تجوب، بعد خمسين سنة من الفراق، أطلال منبتك وملعب صباك، وموئل عنفوان شبابك .. مستذكراً ما كان يمور في تلك الأمكنة من تفاصيل حياتية حميمة وعزيزة على قلبك .

بروحك .. وخصالك .. وأدبك الجميل .. يا أبا عبد اللطيف، ما أراك إلا كبيراً من أكابر حلب .

بعد أن سررت واستمتعت وأعجبت بروايتك آنفة الذكر، لقد أمتعتني ثانية ، وأنا أواكب تنامي ذلك الحب الزوجي الكبير، من خلال روايتك " أنت حبيبتي " - الحبّ الزوجي الحميم الدافئ .. الحبّ الزوجي الذي مع مرور الأيام راح يزداد توهجاً بدل أن يخبو .. الحبّ الذي انتشل حميداً من فضاء التشاؤم والتبرّم من الحياة والقدر .. إلى عالم التفاؤل وحبّ الحياة خلال مدة غربته مع الزوجة الحبيبة .

كم أعجبتُ بخصال حميد .. الزوج الشاب المحب العاشق لزوجته، الصديق الصدوق لشريكة حياته، المحب الوفي لأصدقائه .. أستاذ اللغة العربية القدير والمحبوب من قبل طلابه الجزائريين، ومن قبل زملائه المدرّسين العرب والفرنسيين، وسائر المديرين والمفتشين في سلك التدريس .

وكم كان تأثري شديداً بالفرحة العارمة التي اكتنفت كيان ضياء الزوجة الفنيّة، لحظة تيقنّها من حملها، وقد تبدد قلقها الذي لازمها سنة ونيفاً، مخافة عدم إنجاب أبناء لزوجها الحبيب حميد . أما تأثري الكبير .. فقد اكتنفتني لحظة وداع حميد لأرض الجزائر - تاركاً فيها أصدقاء كثيراً خُلصاً ، عايشهم على مدى عشرة أعوام - عائداً لموطنه الحبيب سوريا ، ليؤدي خدمة العلم ، ويكمل رحلة عمره ، بين الأهل في مدينته حلب ، مع حبيبته رفيقة دربه ، حاملين في قلوبهما ذكريات حميمة رائعة ، لن ينسيها مدى العمر.

لك شديد إعجابي .. وخالص تقديري .. يا أبا عبد اللطيف .

* * * *

ما أروعها لحظة ..

في منافسة متلفزة لأصحاب المواهب المتميزة ، كباراً وصغاراً، أدّت طفلة في الخامسة أو السادسة من عمرها، أغنية على نحو حظي بإعجاب لجنة التحكيم بالإجماع مصحوباً بتصفيق الحضور الحار .. ما يعني قبولها للمشاركة في الدور الثاني للمنافسة، فإذا هي فرحة غامرة تتملكها. ركضت تريد مغادرة خشبة المسرح، لكنها لثوان - من شدة انفعالها - لم تهتدِ إلى المخرج .. ما إن اهتدت إليه حتى ركضت لا تلوي على شيء وألقت نفسها في أحضان أمها المنتظرة خلف الكواليس . حملتها الأم بين ذراعيها ضامّة إياها إلى صدرها، وقد طوقت الطفلة أمها بجماع ذراعيها وساقها، وأجهشت بالبكاء ذارفة دموع الانفعال غزيرة تسيل على خديها الورديين.

ما أروعها لحظة .. ما أروع الأطفال .. وما أروع الكبار حين يتفهمون الصغار

* *

في حفل يقام سنوياً لتكريم الفنانين المبرزين .. ما إن سمع اسمه يُعلن فائزاً بجائزة أحسن أداء عن دوره في أحد الأفلام حتى قفز الطفل عن مقعده معانقاً أمه الجالسة إلى جانبه، ثم شقّ طريقه بين الحضور راكضاً إلى خشبة المسرح لتسلّم جائزته

أمام جمهور عريض يضمّ سينمائيين ، وموسيقيين ، ومغنيين ، وصحافيين ، ومسؤولين حكوميين كباراً. صعد إلى الخشبة، والفرحة تغمره، وانتظر حتى أنهى الحاضرون تصفيقهم الحاد، ثم وهو يُعبّر عن سعادته الغامرة، وعن شكره للجميع، لم يستطع أن يمنع نفسه عن البكاء.

كان بانتظاره على المسرح أحد مشاهير الممثلين، الذي استدعي من بين الحضور خصيصاً ليناول الطفل الفائز جائزته المتمثلة بتمثال مذهب غاية في الجمال . انحنى الممثل ذو التسعين عاماً، والتمثال الجائزة في يده، ليتلقف بين ذراعيه، الطفل الباكي، مهنئاً.

كان عناقاً مؤثراً- اخضلت له العيون - بين نفس ذاوية على وشك أن تأفل عن الحياة ، وأخرى لما تزل برعماً يتفتح للحياة .. كان عناقاً معبراً أجمل تعبير عن تبادل الأدوار بين البشر .

* * * *

من الأفلام ..

من المشاهد السينمائية المؤثرة التي هزت مشاعري .. مشهد مازال ماثلاً في ذاكرتي لفيلم لم أعد أذكر عنوانه، يصور اضطراب فتى الانفصال عن كلبه الذي عايشه أياماً عصيبة ملأى بالمخاطر الجسيمة، استمات فيها الكلب في الذود عن صاحبه في إحدى الغابات التي سكنها معاً في كوخ، قبل أن يحرقه أناس أشرار.

كان على الفتى الرحيل للعيش في بلد بعيد، في أحوال تحول دون اصطحاب كلبه. ولما كان من عادة الكلب أن يرافق صاحبه كظله، لم ير الفتى مناصاً من قسره على الابتعاد عنه إلا بنهره والصياح في وجهه بكل جدية وعنف .. ورميه بما يقع تحت يده دون نية في إصابته. أما الكلب المصدوم بفعل صاحبه، فقد كان يلوب متفادياً قذائف صاحبه، متنقلاً في جميع الجهات .. واقفاً في كل ثانية سانحة ينظر إلى وجه صاحبه مذهولاً مستفسراً من موقفه المفاجئ الذي لا يجد له ما يبرره، وكأن لسان حاله يقول : ماذا

دهاك يا صديقي .. أهذا جزاء الوفاء والإحسان ؟! وحين أيقن الكلب مدى جدية صاحبه، لم ير بداً من الابتعاد راحلاً عنه.

صعد الفتى ظهر السفينة التي ستنقله إلى مقصده، بيد أنه في تلك اللحظات عزف عن نية السفر إلى المجهول، مؤثراً الرجوع للعيش في الغابة. عاد إلى كوخه المحروق يعمل على ترميمه، أخذاً لنفسه قسطاً من الراحة كلما أنهكه التعب، مستعيداً ذكرياته مع كلبه الوفي .

تمضي أيام .. وفيما هو مكبّ على ترميم كوخه، إذا بكلبه يرقبه من على تلّ يشرف على الكوخ عن بعد. ما إن تلتقي عيونهما حتى تفضي اللفتة المتأججة في كليهما إلى أن يندفعا يعدوان نحو بعضهما .. ما إن صارا على مقربة من بعضهما حتى قذف الكلب بنفسه إلى صدر صاحبه .. فينطحان أرضاً يتدحرجان لصيقتين سعيدتين .. كان مشهداً رائعاً للقاء مؤثّر، استطاع المخرج تصويره بمصادقية شديدة !

ربما تنطبق لحظة اللقاء غير المتوقعة تلك على حال اثنين، في الواقع، حين ينتوي أحدهما العودة للعيش مع صديقه، بعد أن كانت الظروف قد قسرتة على الرحيل، وذلك لحنين فيه، ووفاء لصداقة ربطت بينهما من جراء أيام صعبة كابداها معاً. فإن كانت حالتها لا تؤثر فينا ونحن نسمع عنها في حديث عابر، كما تؤثر فينا ونحن نقرأها، أو نشاهدها فيلماً، فذلك لعدم معاشتنا لتفاصيل الصعاب التي كابداها، أو الهناءة التي سويها عاشاها، وما قد تخللها من حوارات، ولفقات معبرة. فالسرد بلغة أدبية، أو بمشاهد سينمائية متقنة ترفدها الموسيقى التصويرية المناسبة للحالة الشعورية .. له دور كبير في التأثير على المتلقي . لكن ثمة أفلام مقتبسة عن روايات أدبية، تُبخس من قدر العمل الأدبي، فإن لم يكن ذلك بسبب ضعف السيناريو أو الإخراج، أو كليهما معاً، فبسبب ما للنص الأدبي من قدرة عالية على وصف خلجات النفس الإنسانية وهواجسها على نحو أدق وأشمل، ما يتيح للقارئ تخيل الأمكنة والشخوص كما يحلو له ويراه مناسباً.

إن الفيلم لن يُعني الرواية أو القصة الأدبية، ويزيد من جمالها، إلا إن امتاز ببراعة السيناريو إلى جانب براعة الإخراج، والسخاء المادي في الإنتاج .

* * *

هناك مشهد مؤثر آخر من المشاهد الأخيرة لفيلم أمريكي .. تمثيل وإخراج الشهير كلينت إيستوود ، والممثلة القديرة ميريل ستريب، بعنوان :

" جسور مقاطعة ماديسون " المقتبس عن رواية للكاتب الأميركي روبرت جيمس وولر، ذلك المشهد الذي يكتف ويجلو الصراع الداخلي العنيف لزوجة مُحبةً لزوجها وولديها - ابن وابنة في مقتبل العمر - وقد هامت بحب رجل عابر للمنطقة الريفية التي تسكنها، وهو في مهمة لتصوير الجسور هناك، لصالح مجلة ناشيونال جيوغرافيك . لقد نشأ ذلك الحب، في غضون أربعة أيام من غياب الزوج مع الابن والابنة عن منزلهم الواقع في إحدى المقاطعات الأمريكية .

في أثناء عبوره المقاطعة بسيارته الزراعية، توقف الرجل إذ رآها أمام منزلها، ليسأل ما إذا كان يسير في الاتجاه الصحيح نحو جسر روزمان . حاولت أن تُرشده على وجه الدقة نحو المكان الذي لا يبعد كثيراً عن منزلها، لكن ضماناً لوصوله دون أن يضل الطريق، أبدت استعدادها لمرافقته إن أحب، فقبل ذلك شاكرأ . وفيما كان يلتقط بعض الصور للجسر وبعض النباتات المحيطة به، كانت هي ترقبه عن بُعد من على الجسر ريثما ينهي مهمته . في طريق العودة، أبدت رغبتها في استضافته في منزلها الزوجي، إذ إن زوجها وولديها قد سافروا للمشاركة في مسابقة ستدوم أربعة أيام . تعرّف كل منهما خلال هذه الأيام على ماضي وحاضر الآخر، واستشف ما تنطوي عليه سريرته، وشعرا خلالها بحب حقيقي قد احتل قلوبهما - حبٍ وصفه لها بأنه " الحب اليقين الذي يتأتى للإنسان مرة واحدة في حياته، أو لا يتأتى العمر كله " ، فلم لا يتشبّثان به، ويرحلان معاً يتنقلان بين البلدان بحكم طبيعة عمله ..

بعد مناقشتها فكرة تخلي الزوجة عن زوجها وولديها، للعيش مع من هامت روحها بروحه، وروحه بروحها، تستقر المرأة على قرار عدم التخلي عن أسرتها، مضحية بحبها في سبيل الواجب، فيودع كل منهما الآخر والحسرة تعصر قلبه .

يؤوب الزوج الغائب وولديه، فتستقبلهم الزوجة على عادتها ببشاشة ومحبة . وبعد أيام قليلة، تدعو الحاجة لأن يترافق الزوجان لشراء بعض الحاجات الضرورية للأسرة . يستقلان سيارتهما الزراعية قاصدين السوق وسط المقاطعة . وفيما كانت الزوجة تنتظر زوجها في السيارة، ريثما يبتاع بعض الحوائج من أحد المتاجر، والمطر يهمني غزيراً، نشاهد الحبيب وهو يتوجه نحو سيارته، يلح من بعيد سيارة حبيبته متوقفة، فيتقدم قليلاً ليستجلي ما إذا كانت هي ذاتها .. ما إن تأكد أنها هي والحبيبة داخلها حتى جمد في مكانه تحت وابل المطر ناظراً إليها . أما هي، فتحنى نحو نافذة السيارة جانب المقود، وتتنظر إليه متسائلة أيكون حبيبها ذاك الذي يقف وسط الطريق مسربلاً بالمطر وبعض

من خصلات شعره تكاد تغطي عينيه..! فتواصل النظر إليه منحنية وقد عرفته .. إلى أن تستقيم في جلستها مجفلة بعودة الزوج .

عند شارة مرور ضوئية، يتصادف أن تتوقف سيارة الزوج خلف سيارة الحبيب. ينتبه الحبيب إلى ذلك فيخرج سلسلة كانت قد أهدتها الحبيبة إليه لتكون ذكرى له منها - صليبٌ حُفِرَ عليه اسمها - ويعلقها على حمالة المرأة أمامه، والحبيبة ترقب ما يقوم به، من خلال زجاج السيارتين، بتركيز شديد. في تلك اللحظة، يحتدم الصراع الداخلي في أعماقها على أشده .. أتهرع إليه قبل أن تأذن شارة المرور بالعبور، أم تلبي نداء الواجب .. ها هي يدها تمسك بمقبض باب السيارة مراعية ألا تلفت انتباه زوجها .. تدير المقبض بحذر وببطء شديدين .. لم يبق عليها سوى أن تقوم بضغطة يسيرة لينفتح الباب وتقفز لتستقر في سيارة الحبيب فينطلقا معاً .. لكن وازع الضمير، في الثواني الأخيرة، يكبل يدها، مانعاً إياها من الاستسلام لفكرة شيطانية ألمت بها، فتعيد مقبض الباب رويداً رويداً إلى ما كان عليه، والدموع تنهمر على وجنتيها من شدة ما عانت في ثوان من صراع أنك أعصابها أيما إنهاك، ولتيقننها من أنها فقدت حباً حقيقياً إلى الأبد . يلحظ الزوج حالها .. يستفسر عن سبب دموعها، فتتذرع بضيق نفسي، مبهم الأسباب، ألمٌ بها فجأة . تؤذن الشارة الخضراء بالعبور، ويغيب الحبيب بسيارته داخل الضباب . كان مشهداً مؤثراً جداً ضمن جو شتائي ماطر .. مشهداً مؤثراً تخضّل له العيون .

تعود الزوجة إلى سابق عهدها، فتهتم بزوجها وولديها على أحسن حال، ولاسيما حين يمرض الزوج ولا يقوى على مغادرة الفراش لمدة طويلة .. يعتذر لها خلال مرضه لعدم تمكنه توفير حياة سعيدة لها كما كانت تتمنى . تتفانى بالسهر والحنوّ عليه بحب وإخلاص إلى أن يفارق الحياة .

في أحد المشاهد، كم كان تأثر الحبيبة بالغاً، بعد سنوات مرّت، وهي تنظر إلى الرسائل والتذكارات - التي كان الحبيب قد أوصى بإعادتها إليها بعد موته - مرتبة ضمن صندوق، وشريط أحمر يلفّ رسائلهما المتبادلة بعناية لافتة .

أعود إلى بداية الفيلم حينما الابن والابنة - بعد انقضاء ما يقارب عشرين عاماً على قصة أمهما التي جرت عام ١٩٦٥ - يقومان معاً بقراءة الرسائل، ودفتر مذكراتها، وقراءة رسالة موجهة لولديها قد عثرا عليها ضمن صندوق خشبي مع أشياء أخرى عزيزة على نفسها من ضمنها آلة التصوير التي كانت تلازم حبيب أمهما في أثناء عمله، والسلسلة بالصليب الذي كانت قد أهدته إليه، والفتان الذي ابتاعته خصيصاً لمناسبة

تناول أول عشاء معه خارج المنزل. وقد شرحت في رسالتها لهما كيف نشأ ذلك الحب الكبير في أثناء غيابهما مع والدهما، وتطلب منهما أن يتفهما ذلك الحب. كانت وصيتها، عند محاميهما، أن يُحرق جثمانها. فيتولّى ولداها ذرّ رماده فوق رماد جثمان الحبيب على جانبي جسر روزمان الذي كان سبب تعارفهما، إذ كان الحبيب قد أوصى محاميه بذرّ رماد جثمانه هناك .

عارض الابن بشدة تنفيذ وصية أمه بحرق جثمانها، وهو الذي مع بداية اطلاعه على قصتها، كان الامتناع والتجهم باديين على وجهه طوال الوقت لما اعتبره خيانة لوالده وفعلاً مشيناً لا يمكن لابن أن يغفره لأم، في حين أن الابنة كانت متفهمة لمشاعر أمها، وقد أحست بالغيرة منها، إذ رأت أنها تفتقد رومانسية أمها في علاقتها هي بزوجها. ومع انتهاء الابنة من قراءة الرسالة لأخيها نرى علامات الرضا ترتسم على وجهه، فتجيش عاطفته نحو زوجته، فقد أحس أنه مقصّر في الاهتمام بها، فيذهب إليها ويضمّها إلى صدره بقوة واشتياق، أما الابنة فتسارع إلى مهاتفة زوجها لتلتقيّه بعد قطيعة طالت بينهما . وإذا بنا في المشهد الأخير، نرى الابن بصحبة بقية أفراد الأسرة، ينثر رماد أمه بيديه، برويّة واقتناع، على أحد طرفي جسر روزمان، ليتعانق الرمادان، فيما الكاميرا تنحو بالمشهد ونيدةً نحو السماء معلنة نهاية الفيلم .

لقد جلّى الفيلم التباين بين حُبّ يتأتّى بالمعاشرة الزوجية، فيغدو مع مرور الأيام علاقة مودّة تسودها مشاعر المحبة والاحترام، وبين حب ينشأ عند الوهلة الأولى للقاء رجل وامرأة جرّاء انجذاب أثري بين روحيهما، واستشفاف رؤى وميولٍ مشتركة بينهما، فتتأجج المشاعر، لتفضي في ظرف سانح – إذا لم يكن رباط الزوجية متاحاً – إلى اللقاء الجسدي، بنية مسبقة، أو بغير سابق نية .

لا بدّ للمشاهد من أن يحزن للمعاناة النفسية الشديدة التي كابدها الزوجة في اتخاذ القرار.. إمّا بالرحيل مع حبيبها، أو بالبقاء مع زوجها وولديها. إنها إشكالية ملازمة للحياة الإنسانية منذ القدم .. الصراع بين هوى النفس، والقيم الأخلاقية النبيلة. إن النفس البشرية مهما كانت قوية إزاء كبح أهوائها المنافية للشرائع والأعراف، فإنها في حال من الأحوال، يمكن أن يعتريها الضعف، فلا تسلم من الزلل إلا إن كان إيمانها قوياً بالثواب والعقاب الإلهيّين، إذ إن النفس حتى وهي مسلّحة بذاك الإيمان، فهي غير معصومة كلياً عن الزلل، ما لم تحرص على النأي بذاتها عمّا يمكن أن يؤدي إلى السقوط .

* * *

مشاهد من فيلم

* صمت البحر *

عام ١٩٤١ أيام احتلال فرنسا من قِبَل جيش هتلر .. كانت هناك فتاة في رَيِّق العمر وحيدة والديها المتوفَّين، تعمل معلمة للموسيقا الكلاسيكية، وتقيم مع جدّها وحيدتين في المنزل الذي ترعرعت فيه، ضمن ضاحية ذات طبيعة خلّابة، وهي على وفاق مع جدّها المتقاعد الذي يُمضي بعضاً من النهار برعاية حديقة منزلهما .. تعزف له على البيانو .. تلعب معه الشطرنج، أو يقرأ كل منهما في كتاب من الكتب العديدة المرصوفة ضمن مكتبة المنزل الضخمة.

ارتأت القيادة الألمانية في فرنسا، في ذلك الوقت، أن تُجبر الأسر التي تعيش في منزل واسع لائق، على تخصيص غرفة من غرف المنزل ليقم فيها واحد من ضباطها ذوي الرتب العالية، وقد اختير منزلهما ذو الطابقين، من قِبَل ضابط مُكلّف بهذا الأمر، بعد أن قام بفحصه من الداخل، ليقم ضابط رفيع الشأن في غرفة من الطابق العلوي للمنزل. كانت الغرفة المختارة غرفة نوم والديها. كان في الغرفة صورة لوالديها الراحلين ضمن إطار، إلى جانب مزهرية اعتادت الفتاة أن تضع فيها باقة من ورد وزهر كلما عادت من زيارة قبريهما، فكان أن أخذت الصورة، وانتزعت الباقة من المزهرية بعصبية شديدة وأخرجتهما من الغرفة معها، وراء من كان يتفحص الغرفة، مغتاظة مستنكرة، بصمت، قدوم ذلك الغريب. ساءها وجدّها أن يقيم معهما شخص ليس غريباً فحسب، بل من جيش عدو لوطنهما .. لكن لا بدّ من الامتثال للأمر.

عند المساء ، تقف سيارة عسكرية أمام باب المنزل، يترجل منها ضابط في ريعان شبابه ببذته العسكرية الأنيقة، بادي الوسامة .. ذو قامة منتصبة مشيقة .. يقرع الباب ويدخل صالة المنزل بهدوء، محيياً الجد والفتاة، معرّفاً بنفسه ببالغ الأدب والتهذيب والاحترام .. لكنه يقابل بالصمت المطبق دون ردّ على تحيته. يطلب الجد إلى حفيده أن تريه غرفة إقامته، فتقوده إليها. يتفحصها ويعرب عن إعجابه بالغرفة بأدب جم والفتاة واجمة لا تنبث بكلمة، ثم تخرج عائدة إلى الطابق السفلي، حزينة مقهورة. ولإحساس الضابط باستياء الجد وحفيده من أمر إقامته معهما، فقد نزل إليهما ليعلمهما بكل أدب وهدوء بأنه لن يثقل عليهما بشيء، وبأنه سيتناول وجبات طعامه في مقر عمله، فلم ينبثا ببنت شفة. تمنى لهما مساءً سعيداً وغادر المنزل .

تتالت الأيام والضابط ملتزم بتحيتهما في أثناء مغادرته وإيابه، على الرغم من أنه لا يلقي رداً منهما على تحياته ولا حتى النظر إلى وجهه، حتى وهو يتوجه إليهما بالحديث .. عن الطقس، أو عن الكتب التي تضمها مكتبة منزلهما، مبدئياً إعجابه ببعض الكتّاب الفرنسيين. تذرّع مرة ببرودة الجو، فطلب أن يجلس لدقائق معهما أمام المدفأة الجدارية .. فلم يلقَ رداً، ولم يرى في وجهيهما، وهما لا ينظران إليه، سوى علامات الامتعاض وعدم الارتياح بوجوده . حين رأى آلة البيانو في صالة المنزل وعليها كرّاسة مفتوحة على نوتة لحن كلاسيكي، أبدى إعجابه، وقال إنه يجيد العزف على البيانو، ويؤلف الموسيقى أيضاً .. وإنه كان مجبراً على الانتساب إلى سلك الجيش .. لكنهما يبقيان على صمتهما لا تفتّر شفاهما عن كلمة، كل منهما مثبّت نظره على كتاب يتظاهر بقراءته، فكان الضابط كمن يحدث نفسه .. تمنى لهما ليلة سعيدة بكل أدب وصعد إلى غرفته .

في أحد الأيام طلب الجد إلى حفيده أن تعزف شيئاً، فقالت له لن أعزف في أثناء وجوده في المنزل. تصادف يوماً أن دخل عليهما وهما يلعبان الشطرنج، فحياً كعادته باحترام وقال إنه يود أن يقول لهما شيئاً .. ودون أن يلتفتا إليه، طلب الجد من حفيده أن تتابع اللعب، فيلقي الضابط تحيته ويصعد إلى غرفته .

ذات يوم، والفتاة تسير على طريق نائية عن الضاحية، إذا بها تشعر بشيء يخزُ قدمها، فتجلس على ناصية الطريق لتتفحص حذاءها، وفيما هي منكبة على الحذاء، إذا بسيارة الضابط تمر من أمامها. ما إن يراها حتى يطلب إلى السائق إيقاف السيارة ويهرع إليها يعرض عليها إيصالها إلى الوجهة التي تريد، تنهض، فيسبقها ويفتح باب السيارة لها ويبقى واقفاً ينتظرها. تمشي مارةً من جانبه مبتعدة وكأنها لا تراه .. فما كان منه إلا أن ركب السيارة وأوعز لسائقه بالانطلاق .

في يوم آخر تصادف أن رآها تشتري سمكاً فوقف على الممر الذي ستخرج منه إلى الشارع وهو يديم النظر إليها، فتتجاوزته دون أن تلتفت إليه قاصدة دراجتها الهوائية، يتبعها ويقف إلى جانبها بينما هي منهمكة بتثبيت سلتها، بما فيها من سمك السردين، على مقعد دراجتها الخفي، ولارتباك ألمّ بها في تلك اللحظة من وجوده بجانبها، تنقلب السلة بما فيها من السمك على الأرض فوق عشب أخضر، تنحي فينحني معها يعيدان السمكات إلى السلة وهما يلزمان الصمت، تمتطي دراجتها وتغادر .

في ظهيرة أحد الأيام، يأتي إليها شاب اعتادت شراء الحليب من عنده - كان قبل يومين قد صادفها ماشية فأوصلها إلى منزلها بسيارته التي يوزع بها الحليب - يعرض عليها مرافقته مساءً إلى حفلة راقصة، فتعذر، يلح عليها، فلا تستجيب لرغبته، فما كان منه إلا أن اندفع نحوها وطوّقها بذراعيه بعنف، منقلاً شفتيه على جيدها وشفتيها يريد إشباع شبقه منها، وهي تقاومه بعنف رافضة الإذعان له، طالبة منه الابتعاد عنها بصوت عالٍ .. وإذا بالضابط يسمع صراخها وقد صار على بعد خطوات من باب المنزل عائداً من عمله، فيهرع ليتبين الأمر، فتح الباب ووقف عند عتبه، وجَم الشاب من المفاجأة، والفتاة بين ذراعيه، فانفك عنها غاضباً واندفع نحو الباب يريد الخروج وهو يقول " أدركت الآن ما أنت فيه " فيما كانت تزرّر قميصها الذي حُلّت بعض أزراره جرّاء ما حدث. يصعد الضابط إلى غرفته دون أن يتفوه بكلمة.

في مساء اليوم التالي، أراد الضابط أن يعلمهما قُبيل خروجه، بأنه سيُمضي ليلة عيد ميلاد المسيح في مقر قيادته، فراها جالسة بكامل أناقتها والجد ليس موجوداً، حيّاه.. لكنها لم تلتفت إليه، ألقي نظرة من النافذة نحو الخارج وهو يقول يا لها من أمسية رائعة .. وراح يعزف على البيانو .. وفيما هو يعزف ببراعة، بانّت على محياها علامات الاستمتاع العميق بعزفه دون أن يلحظ ذلك لأنها كانت تجلس خلفه . حين انتهى من العزف، خطا خلف ظهرها بتؤدة ولمس الطرف العلوي للمقعد الجالسة عليه، فاعتراها شيء من توجس .. قال : « في أول يوم أتيت فيه إلى المنزل كنت تعزفين ذات المقدمة الموسيقية لباخ إنها من روائعه ». لكنها تبقى على صمتها دون أن تلتفت إليه، يتمنى لها عيداً سعيداً ويغادر المنزل. تصعد إلى غرفته، فتقع عيناها على شالٍ له، تضمه بكلتا يديها وتستنشيه بعمق مسبلة الجفّين . على منضدة إلى جانب باب الغرفة ترى ظرفاً مفتوحاً يظهر منه طرف رسالة مع صورة، تُخرجهما وتخطو نحو السرير لتجلس على حافته، وهي تنظر إليهما، ثم تعيدهما إلى الظرف وتضعه على منضدة بجانب السرير، وتستلقي على جنبها مُوسِدةً رأسها على الوسادة التي ينام عليها مُمرّرة راحة يدها برفق على الوسادة كأنها تتلمس وجهه .. وتغرق في إغفاءة. تصحو من إغفائها على صوت سيارة تقف أمام المنزل .. ترتبك ارتباكاً شديداً وتتنظر من النافذة وإذا بالضابط يترجل من السيارة، تعيد الرسالة إلى المنضدة بجانب الباب على النحو الذي كانت عليه، وتخرج مغلقة باب الغرفة على عجل، ومن أثر تيار الهواء جرّاء إغلاق الباب، بعد أن أصبحت خارج الغرفة، تقع الرسالة على الأرض. يصعد الضابط إلى غرفته، يلح الرسالة عند قدميه فيأخذها الاستغراب، يجيل بنظره في الغرفة والشك يعتريه مما إذا كان أحد قد دخل غرفته في أثناء غيابه .

في إحدى الليالي وهي ساهرة تنظر إلى الشارع من نافذة غرفتها، والضابط نائم في غرفته، ترى حارسه جالسين أمام المنزل غارقين في حديث، وترى، على بعد منهما، شخصاً من المقاومين للاحتلال، يتسلل تحت سيارة الضابط ليفخخها بأصابع الديناميت، يملكها الذعر والارتباك وتهرع إلى الطابق العلوي لتعلم الضابط بالأمر، إلا أنها تقف أمام باب غرفته مترددة، ثم تحجم عن إخباره، وتبقى جالسة وهي بين غفوة وصحو . عند الصباح ترى ضابطين يقفان عند السيارة باسطين عليها خريطة يتداولان في أمر، فتدرك أنهما على موعد مع رئيسهما وهما ينتظرانه ريثما ينزل إليهما ليغادرا معه في مهمة. حين تشعر بخروجه من غرفته، تهرع إلى البيانو لتعزف لحناً على نحو صاحب جداً فيما هو متجه نحو باب المنزل يريد الخروج، يمسك مقبض الباب، لكنه يستغرب عزفها على ذلك النحو مع بداية الصباح، يتجه إليها ويقف أمامها، تنظر إليه وهي مستمرة بالعزف الصاخب وعيناها في عينه تقرأه ما تشعر به من ارتباك وهلع .. وإذا بدوي انفجار يصم الآذان يملأ المكان. يهرع الضابط إلى الخارج فيرى السيارة التي كان يجب أن يكون فيها تلك اللحظة، تأكلها النيران، ويلمح واحداً من زملائه ملقى على الأرض والنار مشتعلة فيه، يسارع جاهداً كي يطفئها بما أتيح له، لكن زميله كان قد فارق الحياة.

تُسفر التحقيقات عن الفاعل فيلقى القبض عليه وزوجته، صديقة الفتاة، أما ولدهما الصغير الذي كانت الفتاة تعلمه العزف، يبقى برعاية الفتاة بناء على ما كانت صديقتها قد طلبته منها في حال أصابها وزوجها مكروه .

بعد أيام، وقد مضى على إقامة الضابط في المنزل ثلاثة أشهر، يدخل الضابط على الجد والفتاة، بأدبه المعهود، يعلمهما بأن الجيش الألماني يعاني الأمرين في القتال على الجبهة الروسية من جراء الصقيع، وقد أمر بالتوجه إلى هناك. يصدمها الخبر، ويكتنف نفسها حزن شديد .. يودعهما ويخرج إلى سيارته . عند ذلك، لا تتمالك الفتاة نفسها، فتهرع راكضة إليه حين كان قد ركب السيارة وأغلق بابها، تقف إلى جانب باب السيارة مطرقة برأسها والدموع تسيل من عينيها .. يترجل ويقف أمامها، ترفع رأسها وتنظر إلى عينيه، ثم تُطرق ثانية، لكن صمتها هذه المرة، خلال هذه اللحظة، كان يُعبر عما يحتدم في نفسها من مشاعر الحب والاعتذار والأسف العميق لرحيله. يبقيان واقفين صامتين لثوانٍ .. يركب السيارة ويغادر، فيما هي لاتزال مطرقة واجمة .

* * *

مشهد مؤثر آخر في فيلم آخر :

في أول يوم عمل لها في قُبلاً تسكنها أسرة ثرية، كانت تزيل الغبار عن رفوف مكتبة، ولم تكن تعلم من هو رب الأسرة، وإذا بعينيها تقعان على مشبك شعر خشبي تزينه نقوش ملوّنة، يركن في زاوية من المكتبة. تناولته وراحت تدقق النظر فيه، وإذا بيديها ترتجفان . يرجع المشهد بالمُشاهد إلى لحظة وداعهما الأخير قبل ثلاثين سنة ، حين ملسته عن شعرها لتضعه في راحة يده، مطبقةً عليه أصابعه بأناملها .

* * * *

ماجدة بوظو ..

أديبة معاصرة ، ربما باتت منسية لكثير من القراء والمهتمين بالأدب .. إنها الأديبة ماجدة بوظو .

أجتزئ مقطعاً من خاطرة لها بعنوان " ليلة مع السلطان" من كتابها (أوراق تشتعل) الصادر عام ١٩٩٧، تقول فيه :

« ... وهو على فراش الموت .. كانت حرارة السلطان صلاح الدين الأيوبي ترتفع ، والماء ينضح من جسده .. إلا أنه طلب قُبيل سَكينة الموت ، أن يُدفن وسيفه معه ، وكان يقول " هذا شاهدي يوم القيامة " . فبكيت .. وعندما ذهب لأكتب مقالتي هذه ، وجدتني، وقد أتممتها، أصبح :

أمّا أنا يا قَرَّائي الأحبّاء .. فوصيتي إليكم هي أن يُدفن قلّمي معي ، فهو شاهدي الوحيد يوم القيامة . وكما كان سيف صلاح الدين شاهده في الدفاع عن معاني العدل والخير والحرية، فإن قلّمي هو شاهدي الوحيد في محاولتي الدؤوبة للارتقاء أبداً بكتاباتي نحو معاني العدالة والنقاء والصدق والحق » .

ماجدة بوظو .. الأديبة السورية الدمشقية، الراقية المُجيدة المجلّية بحسب رأيي، والتي كانت تنشر معظم مؤلفاتها من خلال دار للنشر هي صاحبته، بكل أسف أقول : إنها لم تأخذ حقها من التقدير والحديث عن مؤلفاتها، وذلك على المستويين العربيّ والمحليّ، ولاسيّما المحليّ !! وبحسب ما بلغني عنها من صديقة لي كانت طالبتها في

الجامعة أيام الثمانينيات – والتي بعد سنين من تخرجها ودخولها عالم الأدب، تواصلت معها هاتفياً عدة مرات – فقد كانت الأدبية ، على الرغم من حُسنها وأناقتها وروحها المرحية، تؤثر البقاء في الظل، فتعتذر عن إجراء اللقاءات والحوارات مع الإعلاميين، أو حتى مع قرائها الذين يتصلون بها. وقد تبين لي من خلال بحثي على الشابكة ، أن الذين تحدثوا عن كتاباتها ، أو أجروا حوارات معها ، قليلون جداً. وكما أرى، لا شك في أن إثارها الابتعاد عن الوسط الأدبي والإعلامي، كان سبباً في عدم شهرتها . كان لي أن حظيت، منذ سنين خلت ، بقراءة بعض من مؤلفاتها في الرواية، والقصة القصيرة ، والمقالة، إلا أن كتبها مع ما كان لديّ من كتب ، قد سرقت مع سائر أثاث وموجودات ببتي ، خلال الأزمة التي عصفت ببلدنا .

وأنا في طريقي منذ أيام ، إذا بي ألمح كتابها (أوراق تشتعل) إلى جانب كتب شتى لمؤلفين آخرين، معروضة على ناصية الطريق، فاقننتيه. وخلال الحديث عن الكتاب، مع صديقتي، آنفة الذكر، أعلمتني بأن مؤلفته، منذ سنين بعيدة، أصيبت بداء أقعدها. ولا نعلم اليوم إن هي مازالت على قيد الحياة، أم كانت قد رحلت إلى بارئها، فليس على الشابكة ما يدل !!

في اليوم التالي لنشري على الفيسبوك ما قرأته عليكم آنفاً، أي في الثامن من آذار ألفين وأربع وعشرين، أتتني رسالة على المسنجر من إنسانة لا أعرفها، تُعرّفني بنفسها قائلة إن الأدبية ماجدة بوظو تكون عمتها ، وإنها قد توفيت في اليوم الذي تلا نشر مقالتي . فقلت لها : يا للصدفة العجيبة .. وسألتها كيف اطلعت على منشوري وهي ليست من بين أصدقائي؟ فأجابت بأنها يوم الوفاة راحت تبحث عما إذا كان لعمتها صفحة على الفيسبوك، فإذا مقالتي يظهر لها. وعلمتُ منها أن المرحومة من مواليد منتصف الخمسينيات، وأنها في مرحلة متقدمة من حياتها أصيبت بداء التصلب اللويحي، وقد لازمها حتى يوم وفاتها في باريس حيث كانت مقيمة. أعربت لها عن عزائي ، فشكرتني وأثنت على مقالتي .

جاءتني رسالة أخرى من ابنة المرحومة، تعلمني أنها قد قرأت مقالتي عن أمها فور أن علمت به من ابنة خالها، وقالت سبحانه الله الذي سخّر لنشر ما كتبته عن والدتي قبل يوم واحد من وفاتها، فقلت لها ليس ببعيد أن تكون إرادة إلهية .

تمت مراسم الدفن في باريس، وأقيم العزاء في أبوظبي بعد أسبوع من وفاتها. تغمد الله الفقيدة بواسع رحمته وأسكنها فسيح جنانه .

ولألقي الضوء على موقف الكاتبة من أصولها الكردية، أنقل خاطرة لها من كتابها (أوراق تشتعل) عنوانها " الأخوة الأعداء في كردستان .. المخجل المبكي " .
تقول :

« بدون مقدمات كثيرة، دخل محدثي في الموضوع، خالطاً الأوراق بطريقة خبيثة ، فراح يخلط التاريخ بالسياسة بغزله بي .. قال :
- هل تعلمين أنك تشبهين ممثلات السينما الإيطالية ..

فأخفيت ارتبائي الشديد وقلت :
- كلا لا أعلم ، لأنني لا أعتقد ذلك ..

قاطعني قائلاً :
- بلى .. الفارق أن خدودهن لا تحمرّ عندما يخفين الخجل والارتباك ..

وتابع يقول :
- هل تعلمين أن أصل الأكراد هو هندو- أوربي، ومن يدري، ربما جدّك كان في روما ، وربما أن الكاتب الإيطالي ماريو يوزو هو ابن عمك .. هذا الكاتب الشهير الذي كتب لمارلون براندو أروع أفلامه ..

قاطعته قائلة :
- الواقع أنني لا أعرف شيئاً عنهم .. وصحيح أنني أنحدر من أسرة ذات أصول كردية قديمة ، إلا أنني لا أعرف عنهم أيّ شيء، وما أعرفه هو أنني ابنة حيّ اسمه دمشق يقع في المدينة العربية ...

وكانه لا يسمعني فقد تابع :
- هناك أكراد سنّيون وشيعيون ويهود ومسيحيون ... وأجدادك الباشوات كانوا في الواقع باشوات رجعيين ..

أحسست بحقن وقلت :
- لماذا تحدثني عنهم .. إنني لا أريد أن أستمع ..

قاطعني قائلاً :
- بل يجب أن تستمعي وتعرفي بأن الجغرافيا والسياسة والقوى الإقليمية والعالمية كلّها مشتركة قد تأمرت على هذا العرق التعيس وأعني العرق الكردي .. وبهذه المرتبة يتميّز

الأكراد بأنهم الشعب المضحى به بامتياز على مذبح المصالح الإقليمية والعلاقات الدولية - على حد قول الأستاذ كمال طرييه، كبير المعلقين السياسيين براديو مونت كارلو- وذلك بحكم الانتشار الجغرافي لهذا الشعب على أراضي دول مجاورة ومنتاحرة، وفوق أرض تختزن في باطنها بحراً من النفط يسيل لسيلانه لعاب الدول الكبرى ..

صمتٌ لأتابع ، فقد شدّني حديثه، وكأنما لاحظ ذلك فتابع : منذ الناصر صلاح الدين لم يعرف الأكراد السلم ولا الاستقرار، وكردستان الممتدة على شكل هلال ابتداء من تخوم أذربيجان مروراً بتركيا والعراق وإيران وحتى مشارف سوريا، كردستان هذه لم تعرف الاستقرار في يوم من الأيام ...

لم أكن أعلم شيئاً من المعلومات التي يسوقها ، فصمتُ ، ولكنه تابع : اليوم يتجدد الحديث عن الأكراد بعد أن اشتد القتال الكردي - الكردي بين الشقيقين اللدودين البرزاني (الديموقراطي!!!) والطالباني (الوطني!!!) مضافاً إليه أوجلان (اليساري). هذا الاقتتال العشائري القبلي ليس مرشحاً للتوقف إلا لفترات وجيزة تنجح للبيشماركة فرصة التقاط الأنفاس وتعويض الخسائر .. والسبب باختصار - كما يقول الأستاذ كمال طرييه - إن الحرب الكردية - الكردية توفر على القوى الإقليمية والدول المجاورة مغبة الدخول في مواجهة عسكرية مباشرة ، دفاعاً عن مصالحها السياسية والاقتصادية . فتركيا القاعدة الأطلسية الأهم في هذه المنطقة من العالم .. تركيا هذه، بينما تقمع أكرادها في الداخل، فإنها تقوم بدعم أكراد البرزاني بتغطية سياسية أمريكية وبريطانية .. أما إيران المنغمسة في نزاع تاريخي مع العراق، وفي تنافس إقليمي مع تركيا، فهي تساند جماعة الطالباني وتغض الطرف عن نشاط حزب العمال الكردستاني كما تؤكد أنقرة وواشنطن ..

وبان الاستياء والقرَف ممّا أسمع على تقاطيع وجهي فتابع : آخر الأنباء تفيد بأن مقاتلي البرزاني خرقوا الهدنة المعلنة وهاجموا الطالباني . أنباء أخرى تؤكد عكس ذلك ، والنتيجة دائماً إياها .. مئات القرويين الأكراد يُقتلون يومياً برصاص الأخوة الأعداء الثلاثة ، فيما تقوم القوى الإقليمية والدولية بصبّ الزيت على النار، وتكتفي جمعية الأمم المتحدة بالصمت المدان .. وأكرر بأن هذا الكلام على ذمة المعلق السياسي الأستاذ كمال طرييه .

عند هذا الحد .. كان الاستياء الشديد قد ازداد أكثر وأكثر في تقاطيع وجهي فوقفت ناهية الحديث .. قلت كمدرّسة مرحلة ابتدائية تلقي محاضرتها بانفعال شديد على تلاميذها :

ومهما كان أجداد أسرتي من الباشوات .. ومهما كان نوع الاضطهاد المزمّن الذي تعرّض له الشعب الكردي، فإنني لا أستطيع بحال من الأحوال أن أغفر لكل هؤلاء الأخوة الأعداء الذين يملأ الجهل والتخلف المخجل نفوسهم الصغيرة، لا أستطيع أن أعتزّ بانتماء أصول أسرتي القديمة إليهم ما لم يصلحوا ما بأنفسهم .. ولو أن واحداً منهم وقف موقفاً رجولياً وأعلن انسحابه من الساحة السياسية لصالح شعبه – وأعني الشعب الكردي التعيس على مر العصور – لسجّل التاريخ اسمه في صفحة ناصعة بالتأكيد، بدل الصحائف السوداء التي تنتظره ... لماذا نبحت عن المؤامرات الخارجية والإقليمية، والعيب .. كل العيب في نفوسنا الصغيرة .. هذا الاقتتال الهمجي المجنون، هذه العشائرية القاتلة .. لا .. لا .. إنني أعتذر من أبي معلنة عدم الانتماء إليهم . محمد كرد علي وهو ذو أصل كردي عاش في دمشق، وقد أرّخ لبلاد الشام كما لم يفعل أحد سواه بكتابه "خُطط الشام"، وعمّي علي بوظو الذي شغل منصب نائب رئيس الأمة في أيام الوحدة بين مصر وسوريا، والذي عُرف بمواقفه الوطنية العظيمة .. وجدّي الأكبر السلطان صلاح الدين الذي نصر العرب على الفرنجة .. هؤلاء هم أجدادي، وهم عرب أكثر من العرب أنفسهم في كثير من الأحيان .. إن الشارع العربي بكل همومه ومصاعبه ومصائبه التي لا تحصى، كمن يعيش في عنق زجاجة، ويتنفس هناك منذ سنين طويلة.. هذا الشارع هو انتمائي، مع فخري واعتزازي الشديد بجدّي الأكبر صلاح الدين. وإني لأتساءل : ترى لو أنه كان على قيد الحياة ، فما الذي كان فعله بهؤلاء الساسة الجدد الذين يتاجرون بأرواح شعبهم في كردستان !!

وبينما أنصرف .. كان صوته يأتيني من الخلف :
إن حنقك جميل .. إنك تزدادين جمالاً عندما تكونين في حالة غضب .. هل تعلمين ذلك؟

صرخت :

ولا أريد أن أعلمه .. ثم كُفّ عن غزلك هذا أرجوك، فأنا لا يمكن أن أقع فريسة له ،
لأنني لا أحبُّك !! » .

* * * *

من أيام خلّت.. وشبابٍ مضى..

في السبعينيات من القرن الماضي، اعتاد كثير من الشبان والشابات في مدينة حلب أن يُروّحوا عن أنفسهم جيئةً وذهاباً مع الأصدقاء على طول شارع طويل كانوا يدعونه بـ (الخط)، مرتادين بين فترة وأخرى المحال التي يضمها، يتناولون فيها المرطبات أو الحلويات أو شطائر المأكولات، جلوساً أو وقوفاً وهم يتجاذبون أطراف الحديث ما بين هزل وجد، وثمة منهم من كان يأمل بمرور إحداها بعينها لعلها تنتبه إلى نظراته المعبرة فتبادله النظرات فتفضي بهما لاحقاً إلى التعارف. وثمة آخرون يسرّهم أن يتابعوا بنظراتهم من هنّ محطّ إعجابهم الشديد ولو لم يلمسوا أي التفات لهم منهم. أنا وبعض الأصدقاء كنا من أولئك الروّاد، معتدّاً بشبابي أيّما اعتداد، لا أبادر بالتقرب من أي فتاة، ولو أعجبتني، إلا إن بدر منها ما يؤكد لي رغبتها في ذلك .

من الشابات الجميلات الأنقيات .. اللافتات .. اللواتي قلّما كنّ يشاهدن على (الخط)، واحدة مشيقة القد، كانت محطّ إعجابي وأصدقائي، وكان يطيب لنا أن ندعوها بالـ Poupée تشبيهاً بالدُّمية، نُسرّ بمرآها وهي تقف مع صديقات لها بعد خروجهن من الكنيسة وقد أدّين صلاة يوم الأحد، أو وهي تقود سيارتها. وما كان يزيد من إعجابنا بها، وقفها ومشيتها اللتان تنمّان عن أنفة، وثقة بالنفس. في أحد الأيام، وأنا في الخامسة والعشرين، فيما كنت وصديقين لي نسير الهوينى على أحد الأرصفة في شارع يتفرع عن (الخط) وإذا بنا نلمح الـ Poupée خلف زجاج مكتب يقع على مستوى الشارع، جالسة تتعلم الضرب على الآلة الكاتبة ، في تلك اللحظة ، رفعت رأسها ناظرة عبر الزجاج، وإذا بي وصديقي نفاجاً بأن خصّنتي بنظرة شككت في أن تكون عابرة ! وانتبه صديقي إلى نظرتها تلك إليّ. بعد أن قطعنا مسافة قصيرة، طلبت من صديقي أن نعود أدرجنا على الرصيف ذاته لأتأكد إن كانت ستخصّني ثانية بالنظرة ذاتها .. وإذا بها تكررها ! سرّني ذلك، وكنت موضع حسد من الصديقين على حظوتي، عادّين تلك النظرة، تعبيراً عن إعجابها بي. لكن وأنا المعتدّ بنفسي، لا يمكن أن أتخذ زمام المبادرة لطلب التعارف لمجرد أنها خصّنتني بتلك النظرة. حدّثت نفسي إذ ربما كانت نظرة لا تحمل في طيّاتها أي معنىً خاصاً .

مرّت أيام، تصادف خلالها، أكثر من مرة، وأنا في طريقي ماشياً، أن أراها تقود سيارتها أو تقف بها عند شارات المرور الضوئية، فألاحظ أنها تُديم النظر إليّ، لكنني لم

أكن أحمل نظرتي إليها أي معنى، مواصلاً السير في طريقي، مسائلاً نفسي : أتراها راغبة في التعرف إليّ؟ إلى أن كان يوماً قررت فيه اتخاذ خطوة أبدي بها رغبتني بالتعرف إليها، فنظراتها المتكررة تلك، حفزتنني لأن أتخذ زمام المبادرة. في اليوم التالي كنت قد عزمت على انتظارها عند سيارتها ساعة انتهائها من التمرن في ذلك المكتب. يممْتُ شطره مزهواً ببذلتني الرمادية الأنيقة وربطة عنقي الخمرية .. أسندتُ ظهري إلى باب سيارتها المركونة إلى جانب الرصيف، عاقداً ذراعِي منتظراً قدومها وكلّي ثقة بأنني سأكون موضع إعجابها وسرورها بجراأتي وإقدامي على ذاك النحو. لحظات .. وإذا بها تخرج من المكتب متجهة نحو سيارتها. بقيت عاقداً ذراعِي، مُسنداً ظهري إلى باب سيارتها، حتى صارت أمامي وأنا أنظر إليها، قالت وهي تُبدي لي مفتاح باب السيارة بيدها :

- أسمح ؟

- مؤكّداً أسمح، لكنني راغب في التعرف إليك إن أحببت، فأنا معجب بك منذ زمن
- حسناً .. لكنك أفزعتنني وأنت تنظر إليّ مكثف الذراعين .. مستنداً إلى باب السيارة
- آسف .. وأرجو أن تعذريني
- لا عليك

عرّفتها باسمي، وعرّفتني باسمها، وأخبرتها بأنني على علم به، وبأنني وبعض أصدقائي من المعجبين بها، وبأننا ندعوها Poupée .. وإذا بها تقول لي مقاطعة : إن بعضاً من معارفها يدعونها بذلك أيضاً، وهي لا تحب أن تدعى بهذا الوصف. ثم ذكرت اسم طبيب، وسألتني إن كانت تربطني به صلة قربي، فأجبت بأنه ابن عمّ لوالدي .. وقلت :

- هل لنا أن نجلس في كافيتيريا الـ (سترانند) لنواصل الحديث ؟

- أرجو المَعذرة، لا أرى ضرورة لذلك

أتاني ردّها صادماً ..

- لكن لديّ ما أريد أن أفضي به إليك

- أعتقد أنك تتبّع الـ cours classic

وإذ هي تفاجئني بهاتين الكلمتين بالفرنسية، تعني بهما أنني أتبع النهج التقليدي في التعارف، ولأنها لم تستجب لدعوتي، فقد تملكني شعور من الانزعاج والارتباك، وما زاد من انزعاجي وارتبائي .. عدم ردّي بالفرنسية، فرغم معرفتي الضئيلة بالفرنسية،

كان بمقدوري الرد بها لو أُتيحت لي لحظات لصياغة جملة مناسبة. كم تمنيت لو كانت قالت تلك الكلمتين بالإنكليزية. فكان مِنِّي أن أجبت :

- لا لستُ أتَّبِع الـ cours classic ، بل نظراتك كلما رأييتني من بعيد، مع كوني معجباً بك، هي ما دعاني إلى طلب التعارف. فقالت :

- الحقيقة هي أنني رأيت في وجهك وجه un enfant innocent وهذا ما كان يدعوني لإطالة النظر إليك .

تملّكني غيظ شديد لأنها ترى وجهي كوجه طفل بريء وأنا المعتدّ بفتوتي وشبابي ..
ولشدة غيظي وانفعالي لم تعد بي رغبة في متابعة الحديث فقلت :

- إن كان الأمر كذلك، أرجو المعذرة لتسببي في مضايقتك.

- لا .. إطلاقاً

- وداعاً

- وداعاً .

عدت أدراجي محبطاً، وطفقت أفكر بكيفية الثأر لكبريائي المكلوم .. لن أدع الأمر يمر بهذه البساطة .. وحدثت نفسي : كان عليّ أن أجيبها كاتماً غيظي، وبوجه باش :

Au contraire, se ne pas un cours classic, mais il est un cours très modern.

ما معناه : على العكس .. ليس نهجاً تقليدياً، بل هو نهجٌ جدُّ حديث. وبذلك أكون قد أعلمتها بأنني على دراية باللغة الفرنسية، إن كانت ترى معرفة لغة أجنبية سمةً ترفع من قدر المرء .

في صباح اليوم التالي وأنا في عملي الوظيفي كان شرودي ملحوظاً للزملاء، ذلك لأنني كنت أفكر بالانتكاسة التي منيْتُ بها في اليوم الفائت، وبما يجب علي عمله لأسترد اعتباري .. وقلت في نفسي، ربما خطوتي التالية تكون سانحةً تجعلها تبدّل رأيها فتقبل بصدّاقتي . انتويت الذهاب بعد ظهر ذلك اليوم لألقاها، عند خروجها من حصة التمرين، وأبدأ الحديث معها باللغة الإنكليزية مباشرة، فإن أجابت بالإنكليزية، وأغلب ظني أنها لن تتمكن من الإجابة بها، أكون قد أعلمتها بأنه إن كانت هي تجيد الفرنسية فأنا أجيد الإنكليزية. وقفت بعيداً بعض الشيء عن مكان تدربها، أنتظر خروجها.
حين خرجتُ، انتظرتُ قليلاً حتى صارت خلف مقود سيارتها، ثم أسرعْتُ الخطى حتى وصلتُ إلى السيارة وأخذتُ أنقر بإصبعي شباك المقعد المجاور لمقعدها. حين رأيتني،

طلبت منها بإشارة من يدي، أن تفتح لي الباب. انحنت وفتحته. صعدت وحييتها، فردت تحيتي مع ابتسامة. قلت :

- Your attitude yesterday embarrassed me and was hurtful as well.

- عذراً .. أنا لا أتقن الإنكليزية

فقلت مترجماً :

- موقفك البارحة أخرجني ، وكان جارحاً أيضاً .

ولم أنتظر منها ردّاً ، بل تابعت حديثي سائلاً :

- هل ترين في انتمائنا إلى دينين مختلفين عائناً يحول دون بناء صداقة بيننا؟

- لا .. لا أرى في ذلك حائلاً

- ما يمنعك إذاً من صداقة إنسان رأيت في وجهه ما يوحي ببراعة طفل؟

- ليس بالضرورة أن يكون صاحب وجه يوحي بالبراعة ذا طويّة بريئة

- الأيام كفيلة بكشف الطويّة

- أرجو أن تعذرني .. فأنا مرتبطة.

- أوه .. لا بد لي من الانسحاب إذاً، واسمح لي أن أقول، كان يجدر بك، وأنت

مرتبطة ، ألا تطيلي النظر إليّ كلّما ألقتني الصدفة في طريقك.

ودون أن أنتظر منها جواباً، ودّعتها، وخرجت من السيارة .

مشيت وأنا راضٍ بما كان، وأحسست أنني انتصرت لكبريائي، وحدثت نفسي قائلاً : لعلها مرتبطة حقاً، أو إنها ترى في انتمائنا لدينين مختلفين حائلاً لم تصرّح به، أو إنها حقيقةً لم ترَ فيّ سوى وجه طفل بريء.

في أيام تلت، كنا نلتقي مصادفة في الطريق أو في إحدى المحال التجارية، فكنت أتقصّد أن ترى نظرتي السريعة إليها نظرة من تقع عينه على شخص لا يعرفه . وفي أحد الأيام ، كنت أنتظر على أحد الأرصفة صديقاً لي ريثما يعود من لقاء قصير مع أحد معارفه، وتصادف أن كان ذلك بجوار متجر تباع فيه أصناف التحف والهدايا، صاحبه، بحسب ما أعلم، شقيق والد الـ poupée ، وإذا بي أفاجأ برويتها داخل ذلك

المتجر تُحدّث عمّها وكلاهما ينظران إليّ، فقلت في نفسي لا بد من أنها تحكي له عمّا كان مني معها، ويظنّان أنني أروح وأجيء أمام المتجر منتظراً خروجها، فانتابني انزعاج شديد، وتمنيت ألا يطول غياب صديقي، ليبطل ظنّها وهي تراني أغادر وصديقي فور عودته، مشيراً إلى ساعتني بحركة تنمّ عن استغرابي من تأخره ، وكان ما تمنّيت .

* * * *

يتمنّعن وهنّ راغبات ..

إن بعض الشبان، ممّن يَنشُدون التقربّ إلى إحداهن، يبدؤون محاولاتهم، كل منهم على طريقته، فإذا لم يحظوا باستجابة منها، لا يبرحون مواصلة لجّهم بمعسول الكلام، تماشياً مع مقولة " يتمنّعن وهنّ راغبات " ذلك على الرغم من عدم إبداء الأنثى أيّ إيماءة توحى برغبتها في التقرب، وبالرغم من التزامها الجديّة في الحوار أو التعامل، أو حتى بعد إبداء اعتذارها الصريح القاطع. بل إن هؤلاء البعض يُغرقون في الإلحاح والانبطاح .. ما يؤدي إلى نفور الأنثى منهم إلى حد التقرّز في بعض الأحيان .

إذاً، أيها الشاب، ولاسيّما أنت أيها الرجل .. ميّز جيداً بين من يتمنّعن وهنّ راغبات ومن لسن براغبات، إذ حتى الراغبات - إذا ما كنّ سويّات رزينات - سوف ينفرن ممّن يمكن أن يرغبن فيه، ويصغُر في عيونهن، إذا ما لمسوا أنه لا يتمتع بلباقة حقيقية .. أو يفتقر لعزة النفس .
فكن حريصاً على عزة نفسك، لتحظى ، على الأقل ، باحترامهن .

* *

طلب إضافته صديقاً لها على الفيسبوك فكان له ذلك .
تبادلا الإعجاب والتعليقات على منشوراتهما .. منشوراته هو المتعلقة بالأبحاث والشؤون الاجتماعية، ومنشوراتها هي المتعلقة بالأدب والأحوال الإنسانية ..

بادر من خلال زاوية الدردشة برسالة، مبدياً فيها إجلاله لشخصها وإعجابه بفكرها وكتاباتهما أيما إعجاب . شكرت له ذلك، وقد علمت أنه أستاذ جامعي وله كتب وأبحاث . واطب على مراسلتها يومياً محملاً كل رسالة من رسائله مزيداً من الإعجاب، وفضلاً من المشاعر التي تنم عن رغبته الشديدة في توطيد صداقتهما، إذ إن أحاسسه نحوها، كما قال، قد أضحى شعور حبٍّ يورقه.

بالرغم من حرصها منذ البداية على عدم إبداء أيّ إيماءة توحى بأنها ترغب في صداقة تتجاوز الصداقة الفكرية. لكنه في كل مرة كان يلحّ طالباً منها مبادلتها مشاعره وعواطفه، إذ إنه يراها ملاكاً في كل كلمة من كلماتها وفي كل رأي من آرائها . حين رأت أن عدم ردها على معظم رسائله، أو ردها المقتضب، أو حتى طلبها إليه الالتزام بحدود الصداقة الفكرية .. لن يجدي نفعاً، ولن يوقف إدلاءه بسيل عواطفه الجياشة نحوها، رأت مضطرة أن لا مناص من إعلامه بالعهد الأبديّ لحبيبٍ روحيّ لها، ذاك الذي مازال معها على العهد منذ عقد من الزمان. وهي إذ باحت بذلك، قد توقعت أن أستاذاً جامعياً صاحب أبحاث فكرية، وقد لمس من ملائكتيتها ما لمس، سوف يقدّر عهداً لذاك الحبيب، وسيكفّ عن إلحاحه، ويلجم عواطفه وينسحب، أو يكتفي بالصداقة الفكرية، لكنه لم يأبه لبوحها ذاك، بل ظلّ مثابراً لجوجاً .. فامتعت عن الرد على رسائله.

ما أوردته آنفاً، لهو مثال على صاحب شهادات عليا، يفتقر إلى أدنى الخصال الإنسانية الرفيعة، فلا تُعلي شهادته من شأنه، ويبقى هزياً .. أمام أولئك اللبقيين في سلوكهم .. الصانين لعزة نفوسهم .

٢٥ نيسان ٢٠١٣

* * * *

ميثاق الأمم المتحدة ..

((نحن شعوب الأمم المتحدة قد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من
ويلات الحرب التي في خلال جيل واحد جلبت على الإنسانية، مرتين، أحزاناً يعجز
عنها الوصف، وأن نوّكد مجدّداً، إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد
وقدّره، وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها، من حقوق متساوية، وأن نبين
الأحوال التي يمكن في ظلّها تحقيق العدالة، واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات
وغيرها، من مصادر القانون الدولي، وأن ندفع بالرقى الاجتماعي قدماً، وأن نرفع
مستوى الحياة في جوّ فسيح من الحرية.
وفي سبيل هذه الغايات .. اعترزنا ان نأخذ أنفسنا بالتسامح، وأن نعيش معاً في سلام
وحسن جوار، وأن نضم قوانا كي نحتفظ بالسلم والأمن الدوليين، وأن نكفل قبولنا مبادئ
معينة، ورسم الخطط اللازمة لها، وألاً تُستخدم القوة المسلحة في غير المصلحة
المشتركة، وأن نستخدم الأداة الدولية في ترقية الشؤون الاقتصادية والاجتماعية للشعوب
جميعها)) .

بعد هذا الكلام المنمّق ذي الطابع الإنساني الذي لا يمكن أن لا يُعجّب به أحد ..
يأتي حقّ الفيتو - الذي يملكه الأعضاء الدائمون في مجلس الأمن - مناقضاً للمبادئ
الإنسانية السامية الواردة في الميثاق، ومبنيّاً على منطق القوة، ليعطي القويّ حقّ النقض
لما يتعارض مع مصالحه، ما أدى إلى انتقادات واسعة لهذا الحق الذي يشلّ قرارات
مجلس الأمن الدولي الذي عليه أن يلتزم النزاهة في تطبيق القانون الدولي لحل
النزاعات . يا له من تناقض صريح بين أهداف الميثاق وحقّ الفيتو المشابه لقانون الغاب
- تناقض لا يقبله المنطق السليم، ولا النفس الإنسانية السليمة، ولا أيّ من الشرائع
السماوية . إن حقّ الفيتو يهدف ضمناً، وبكل وقاحة، إلى تقرير مصير الدول بناء على
مصالح كل دولة من الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن، تلك المصالح
التمثّلة بعلاقات كل من هذه الدول مع الدول الأخرى الضعيفة، فتضمن عدم قيام
الحروب بين مالكي ذلك الحق، جرّاء طمع أحدهما في دولة ضعيفة .. وليس بناء على
الحق والعدل تُصرّة للمظلومين من الدول أو الشعوب التي لاحول لها ولا قوة .

إذاً، على الدول الخمس صاحبة ذاك الحق المنافي للحق، أن لا تتظاهر
باستنكارها لمنطق هتلر، أو تيمورلنك .. إن أكثر ما يمكن أن يقبله المنطق السليم، هو

أن يطبّق ذلك الحق – إن كان لا بدّ منه – بالتصويت بين مالكيه الخمسة، ليكون الحسم بثلاثة مقابل اثنين. بيدّ أن هذا، للأسف، لن يكون مجدياً أحياناً، لأن ثلاثة منهم يجمعهم حلف الناتو، والآخرين خارج هذا الحلف .

من المحزن جداً .. أن تلطّخ بقعة الفيتو السوداء، صدر ما يدعى بالأمم المتحدة .

* * *

من المستغرب أن العقوبات الدولية على دولة ما، لا تأخذ بالحسبان الضرر الذي سيلحق بشعبها..!! ما جدوى العقوبات إن كانت ستزيد في ظلم شعب مقهور . فرضُ العقوبات الدولية لا جدوى منه إلا على نظام يكثرث بمصالح شعبه أولاً وأخيراً. إن كان شعب الدولة المعاقبة ، يرى الصواب في نظام حكمه، فإنه سيحتمل العقوبات في سبيل المصالح القومية، أو إنه سيلجأ إلى مطالبة حكّامه بتغيير نهجهم المتسبب في العقوبات. أما إن كان الشعب مستنكراً أصلاً لنهج حكّامه، فكيف لهم أن يلحقوا الأذى بالناس !!

* * *

لماذا يكون من الصعوبة بمكان أن توضع أسس ناجعة للتعاون والتضامن والتكافل بين الشعوب والدول؟! أمن الصعوبة بمكان أن توزّع خيرات كرتنا الأرضية على كل دولة بحسب حاجتها، وثُصك عملة واحدة يتعامل بها الجميع؟! إن كنا قد أضحينا في عصر ما بعد الذرة ، وتوصل الإنسان إلى ما توصل إليه من العلم والمعرفة في مختلف الميادين والمجالات .. أليس بعجيب أنه غير قادر أن يعيش مع أخيه الإنسان بمحبة صادقة؟! أم إن ذلك ليس بعجيب لأن الإنسان على الرغم من قدراته العقلية العالية، غير قادر على أن يلجم أنانيته المستحكمة..!؟

إن كان الله قد وضع فينا غريزة حب الذات .. فبالمقابل قد أكرمنا بالعقل وأمرنا بالتواضع والترحم والتكافل والتضامن، ليمتحننا .. واليوم آتٍ لا ريب ، ليرى من منا استسلم لهواه .. ومن منا عمل بموجب أوامره ونواهيه التي تصب في صالح الإنسان .

* * *

لقد اعتنق الإنسان الأديان السماوية الداعية إلى المحبة والخير والتآخي ..
ومجّدها .. وعلا صوته من على شتى المنابر، حتى السياسية منها، يدعو للقيم الإنسانية
الفاضلة لإحقاق الحق ونصرة المظلوم ومساعدة الضعفاء والمساكين .. وتشكلت لهذه
الغاية المنظمات الإنسانية المتعددة .. ومع هذا تأتي الأفعال – سواء على مستوى الفرد
أو الجماعة أو الدول – على عكس الأقوال ...!! الكل يلهث وراء منفعه ومصالحه
منافحاً عن مكتسباته ولو كانت بغير حق ...!!

* * * *

تأملات ..

ثمة أمر مستتكر، من البشاعة بمكان، يصدر عن أناس اعتادوا الغيبة والبهتان ..
نراهم في المجالس يلوكون - بغاية التسلية والترثرة - سمعة أو أخطاء أصدقاء أو أقارب
لهم، كانوا بالأمس القريب يتسامرون معهم مبدئين لهم كل مودة ! وهم بسردهم أخطاء
وعيوب الآخرين، يبتغون إظهار أنفسهم أسوياء أتقياء .. ويا ليتهم كانوا أفضل ممّن
يستغيبونهم ، إذ ربما كانوا- وهم يدرون أو لا يدرون - يضاهونهم سوءاً. إلى أين
نسير..؟! وإلى أيّ حضيض ستنتهي إليه مجتمعاتنا ؟!

أدام الله أولئك الورعين .. فلا بدّ أنهم سبب رأفة الله بالبشرية .

الشعب الذي يقتتلان باسمه .. يموت ويُسَرَّد ويهاجر .. الوطن الذي يزايده
باسمه أضحى كُوماً من خراب ودمار .. ولا يزالان سادريين غير أبهين . طرَفٌ يستند
إلى قوّته .. وآخر يُتَكى على عزيمته .
المحور المزعوم للقتال: الوطن والمواطن .. وليس ثمة مغلوبٌ ومسحوق من هذا
التناطح العبثي سوى الوطن والمواطن...!!! إلّام سنصل إن بقينا نقاتل بعضنا بعضاً ؟!
أما أن لطرف أن يكون سباقاً فيكفّ عن صلفه .. ويسمو برجاجة عقله .. وإنسانيته ..؟!!

أيها المتناحرون.. عليكم بالبراري فهي أرحب لتناحركم ..
قضيتكم مهما تكن .. لا تساوي دمعة طفلة يُتِمَّت .. ولا أم تُكَلَّت .. ولا أسرة شُرِّدت ..
ولا نفس بريئة قُتلت ..

أفاقت البيوت الوداعة على هديل الحمام وسقسقة العصافير، فيما النسائم الرخيّة
تنسّمُ حاملة شذى الأوراد ورائحة القهوة الصباحية .. وما هي إلا ثوان حتى استحالت،
تلك البيوت، إلى خرائب فوق رؤوس ساكنيها !!!

يقولون : إن ذلك من أجل دحر الطغاة، والوصول إلى غدٍ مشرق واعد !!..
وآخرون يقولون : من أجل إعلاء كلمة الله على الأرض..!!

ليتك تنام ليلةً تحت شجرةٍ بجانب ساقية .. وتصحو فجراً مع الطيور المغرّدة ..
فتوقن قبح مدينتك ومدنيّتك الباهرة .

أتفهّمك جيداً حينما تريد أن تتغاضى عمّن يسرقك مقابل أمنك واستقرارك ..
أمّا أن تدافع عنه بملء صوتك وتنزّهه .. وتجعل منه الراعي الأمثل والحارس الأمين ..
فهذا ما لا يمكن أن يتقبله إنسان يعرف الحق وينبذ الباطل .

لا يختلف اثنان في أن الرمد أخفّ وطأةً من العمى ..
لكن أن تمتدح الرمد وتعتبره حالة صحيّة سليمة .. فأنت بذلك صاحب مصلحة ما ..
ليس إلّا .

ليس مقبولاً عذرٌ لإنسان يخالف القيم النبيلة بحجة أن القانون يقف إلى جانبه ..
إن القوانين الوضعية، والأحكام الشرعية، لا ترقى، بالضرورة، إلى القيم الإنسانية
النبيلة، فهي قد بُنيت بما يتماشى والأحوال العامة السائدة في المجتمع، لتضمن الحقوق

وتَحُول دون النزاعات، ولتحسمها في حال وقوعها لصالح أحد الطرفين تبعاً للأحوال العامة، إذ إن كثيراً من الأفراد أو الجماعات يُظلمون من جراء تطبيق القانون الذي لا يمكن أن يُفصل بحسب كل حال أو قضية على حدة .

العلماء والأدباء والمفكرون النابهون، والفنانون الماهرون، والسياسيون النابغون، والقادة العسكريون الحاذقون - السالفون منهم والمعاصرون - كثرتهم في شعب من الشعوب، ليست مدعاةً لأن يفخر الشعب بنفسه .. فأولئك جديرون بأن يفخروا بأنفسهم . مازلنا نعتز ونفاخر ونباطح بأمجاد أجدادنا الذين منهم أول من اخترع كذا، ومنهم أول من وضع أسس علم كذا، ومنهم من كان المثال الأمثل في المعاملة الإنسانية، وصون الحقوق ..
وأتساءل : إن كنا نحن الأحفاد قد تخاذلنا ولم نواصل المسير على هَدْي الأجداد وما قد أسَّسوه، وصرنا في آخر الرتل من الأمم .. أَيْكون ما كان لهم مدعاة لنا للمفاخرة والشعور بالخِيلاء .. أم مدعاة للأسى والخجل، والعمل الجاد .. لعلنا أن نحظى بمكانة بين الأمم ؟!

الشعب الذي يستحق أن يفخر بنفسه هو ذاك الذي تسود المحبة بين أفرادهِ دون النظر لانتماءاتهم ومعتقداتهم أياً كانت، ويحافظ على نظافة وسلامة مدنه بشوارعها وأبنيتها ومؤسساتها، وينيط زمام إدارتها بالأكفأ، ويسود في بلده القانون والنظام على الجميع دون تمييز، ودخلُ الفرد فيه يوقّر حياة كريمة لأسرته، ودولته تكفل شيخوخته على الوجه اللائق مدى الحياة. ذاك هو الشعب الذي يحق له أن يفخر بما هو عليه .

وطني .. ليس رقعةً من قماشٍ ملوّن .. ولا قِيمين عليه أوفياء كانوا أو غير أوفياء ..
وطني .. منفسحٌ رحبٌ بسهولهِ وجباله وبحره وناسه الطيبين .. يضمُّ أهلي وأحبتي وذكرياتي الحميمة ..
وطني .. هو ذاك الذي يمكنني العيش فيه وأسرتي .. حياة آمنة كريمة .

إنها لمصيبة كبرى أن يكون السلاح بأيدي من يتحسّون الفرص ليُشيعوا ميلهم
الفطري إلى العنف والهمجية بحجة أنهم يحافظون على الأمن والنظام .. فنراهم
منساقون بغريزتهم، كالغيلان الفالته من عقالها .. أمّا المصيبة الأكبر فهي غضّ نظر
من بيده ردهم !! ألا يتحتمّ على أجهزة الأمن وحفظ النظام أن تكون مُنتفاة ممن يصحّ
وصفهم بالبشر ؟!

يا من ترون الممارسات الخاطئة أمراً عادياً لا يستدعي الرفض والاستنكار،
لأنها تتماشى مع مصالحكم، فلا تتوانون في تأييدها .. أنتم النفعيين (الشطّار) الذين
تعدّون أنفسكم، دونما حرج، أصحاب حنكة ودراية وعقل راجح، ومن يخالفكم إن هو إلا
بسيط ساذج .. متى ترتقوا بأنفسكم الضعيفة فتناصروا الحق وتستنكروا الباطل..؟! ألا
تبّاً لكم .. ليتكم على أقلّ تقدير، تلتزمون الصمت فلا تجعلون الخطأ صواباً، أو تتغافلون
عنه .. وهو بيّن كقرص الشمس في وضح النهار.
كفاكم سباحة في الروحانيات والمعنويات قولاً .. وأنتم غارقون في الماديات
عملاً !!

ما أبشع التعامي عن الحقيقة، أو التبرير المِعوّج، حين يصدر عن أناس على قدر
كبير من الثقافة والوعي - أناس لا يتوقع منهم إلا أن يتكلموا باتزان وموضوعية. إنه
لأمرٌ محزنٌ حقاً أن يُضطرّ إنسان إلى التفوّه بما لا يعتقد بصحته، حفاظاً على أسباب
عيشه .. وإنه لأمرٌ مُخزٍ أن يتغاضى عمّا يمليه الضمير، طمعاً في الحصول على
مكتسبات أو امتيازات دنيوية.

ليس بمستغرب أن يكون الغرب والشرق الأقصى على ما هما عليه اليوم .. وأن
يكون كل من الشرق الأوسط والأدنى على ما هما عليه اليوم. فالأولان في القمة ..
والثانيان في الدرك الأسفل .. الأولان يطبقان جوهر الأديان السماوية وغير السماوية ..
فأعزهما الله. أما الثانيان، فمكتفيان بالتغني بالماضي (المجيد) ظناً منهما أن الدين ما هو
إلا طقوس وأدعية وأذكار .. فأذلهما الله .

إذا ما نظرنا اليوم إلى دول العالم التي اتخذت، منذ زمن بعيد حتى اليوم، الديمقراطية الحقيقية ، نهجاً لأسلوب حكمها والتفتت إلى العمل لنهضتها وارتقائها .. نرى أن الله قد أعزّها . وإن الدول التي ارتضت الحكم الملكي أو الأميري أو ماشابه .. والتفتت إلى العمل لنهضتها ونموها وتقدمها .. قد أعزّها الله أيضاً .

أما الدول التي مازال شغلها الشاغل، منذ زمن بعيد وحتى يومنا هذا، من يكون حاكمها، أو كيف يكون نهج الحكم فيها، ولم تتمكن من تجاوز هذا الشغل الشاغل .. قد أذلّها الله ، وتركها تتخبط في أزوماتها وتخلّفها . إذاً ، فإن الله قد أعزّ الشعوب التي أحسنت أعمال عقولها التي أكرمهم بها .. وأذلّ تلك التي لم تحسن أعمال نعمة العقل . ((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم)) مسلمين كنتم .. مسيحيين كنتم .. يهوداً كنتم .. بوذيين كنتم .. أو كنتم ما كنتم .. ليس فيكم من اختار دينه ..

ما يزيد على أربعة مليارات دولار ثمناً لثلاثين طائرة حربية متطورة .. ثلاثة ملايين وستمئة ألف درهم دُفعوا في مزاد علني، ثمناً لرقم مميز لهاتف محمول .. يا للعة والفخار...!!!

في أثناء رحلتي القصيرة ورفيقي إلى الهند، تصادف مرورنا في شارع رئيسي، مع مرور جوقة من الهنود يحتفلون بعيد آلهة من آلهتهم محمولة على عربة، وهم يسيرون خلفها راقصين على إيقاع قرع الطبول. استوقفنا المشهد متأملين هذا العرض الغريب عنا .. وليس ببعيد عني، وقفت متفرجةً شقراء - أوربية القسّمات مشيقة القد محتشمة اللباس - وحيدة تهزّ جسدها بلطف وعفوية على ذاك الإيقاع. حين تلاقت عيناها بعينيها رغبتُ بالتحدث إليها، وكأني بها هي أيضاً أرادت التحدث إليّ .. لكن الحياء حال بيننا. أما روحانا فقد تحاورتا لثوان رغماً عنّا، إذ لا حياء يحول دون تلاقي الأرواح

ما أتعسك أيها الزوج الطيّب المُعسر بزوجة لا تراك سوى أداة إنفاق خربة .. فتنكّد حياتك ليل نهار...!!! وما أسعدك أيها الزوج الطيّب المُعسر بزوجة صالحة ترى من واجبها الأدبي، إن كانت تعمل، أن تؤازرك في الإنفاق، وإن كانت لا تعمل، أن تشعرك بالرضا والامتنان .

أرأيتم إلى السُّبحة حين تنفرط حباتُها وتتدحرج متباعدة تتبعثر ..؟!
هكذا تنفرطُ حَبّات الأَسَر . فإن أمكن أن تعود السبحة إلى هيئتها الأولى .. هيهات..
هيهات .. أن تعود الأَسَر !

إن قلنا إنّ بعض البشر كالحیوانات .. نكن قد ظلمنا الحیوانات .. إذ ما هؤلاء
البعض سوى حشرات ضارّة .. بل هم أخطّ قذراً .. لأن الحشرة المسيرة بغريزتها .. إن
كانت تضر، فإن الله بالمقابل قد جعل لها دوراً بيئياً نافعاً .

أيها الشاب المُعسر البائس التَّعس .. آه لو تُدرك أنك بشبابك أغنى من أثرى شَيْخ ..
فكن ممّن يخافون الله ، ليزيد غِنَاكَ غِنَى .

لو كان قُيِّض لنزار أن يخطّ في هذه الأيام ، قصيدته المغنّاة " أَيْظَن " لقال :
" حتى جينزاتي التي أهملتها .. فرحت به .. رقصت على قدميه " أو ما كان للشاعر أن
يورد حالة الرقص .. إذ لا يمكن للجينزات أو السراويل الضيقة أن ترقص .

كم كنتنّ تَبْدُنّ جميلات بفساتينكنّ وتنانيركنّ أيتها الأنسات والسيدات .. لقد كانت أظهرَ
لأنوثتكنّ .. وأكثر ملاءمة لرقفتكن ..

أنا حزينٌ عليك أيها الكتاب، لأن كثيرين من قرائك قد هجروك .. وأضحوا متيمّين
بالذي احتلّ مكانتك ..! لاتحزن أيها الكتاب .. أنت الأصل .. وستبقى كذلك .. لكننا بشر
تغرينا الألوان .. ويسحرنا التواصل مع الآخرين عن بُعد بكبسة زر. أحنّ إليك أيها
الكتاب .. لكن ما باليد حيلة ..! لسماحتك وسعة صدرك .. أنا على يقين من أنك
ستعذرنا نحن الكثيرين الذين ابتعدنا عنك ، وأنت على يقين من أننا - بين فينة وفينة
والشوق يملؤنا - سنعود إليك ..



السِّتُون ..!!
على خطواتٍ مِنِّي
الزيارة انتهت
أنا الآن في طريقي نحو السماء
الطريق قفر .. هواءه جاف
ربّما يقصُر .. ربما يطول
ليس من لافتةٍ تُشير ..
لكنّ صوتاً طليّاً
لغادةٍ عطوف
لا يني كلّ يوم
ينسُم في سَمْعِي
يُحيلُ القفرَ خُصرة
ويُفعمُ الهواءَ نِداوة

ظِلُّ ابتسامتها العذبةِ الحلوة
مَثُلَ في خاطري
على حين غرّة
أعادني لسنينَ خلت بمسرة
هيهاتَ تعود
ولو لمرة ..
ظِلُّ ابتسامتها العذبةِ الحلوة
سنَح لي في لحظةٍ
من شيخوخةٍ
مُرّة

الوردة الوحيدة
التي تفتحت رويداً رويداً
على نافذتي
وسامرتني وفنجان قهوتي أياماً
تقول لي وداعاً !

كوردة
في أوج تفتّحها
ما أجملك أيها الإنسان
وما أروعك بفتوتك
مُزداناً بتاج الأدب
وصولجان العرفان ..
وكم تدعوني إلى الحزن والأسى
أيها الإنسان
عجوزاً.. تنوي
كأن لستَ
الذي كان !

على رسلك أيها الشاب
على رسلك
إن هي إلا سنين تنقضي
كطرفة عينك
فلا تؤخذن بجامح فتوتك
وخصلات تنفض نزقة على ناصيتك
أو خطوة واثقة في مشيتك
ولا تنتظر إلينا نحن الشيوخ
بطرف عينك
كأننا لم نكن يوماً في مثل سنك
إن هي إلا سنون تمحي
كطرفة عينك
لشمسي واهناً على عكازك
ثم تذكر يوماً ستقف فيه مرتعداً
بين يدي ربك
فعلى رسلك أيها الشاب
على رسلك

السماء زرقاء مُزدانةً بغيماتٍ بيضٍ ناصعة
والطيورُ تُحلّقُ والبلابلُ تشدو
والشمسُ بازغة
الخضرة تكسو السهولَ وسفوحَ جبالٍ شامخة
والنساءُ تداعبن أوراقَ أشجارٍ باسقة
والفراشاتُ تحومُ في المروج الخضر
حولَ زهورٍ ناضرة
الجدولُ ينسابُ صافياً نحو بُحيرةٍ وادعة
صفحة البحر تتماوجُ مع الأنسام زرقاء لامعة

أطفالٌ يلعبونَ في دَعَة
وبطّاتٌ تُوقِفُ فرحة
وقِطْعانُ مواشٍ دَهْشَة
من مواشٍ تتناحر
يقالُ عنها
عاقلة !

ما بالك أيها الإنسان
تهيمُ مسعوراً كالغيلان !!
ألا تَفَكِّرُ بالروح الأزلية الأبدية
في الكيان !!
ألا يعينكَ سوى المالِ والجاهِ والسلطان !!
حاسباً نفسك حاذقاً يَقْظان !!
تَبّاً لك من غافلٍ جهلان ..

تغذّ السيرَ في مسالكِ الحياة لاهئاً ..
أيّها الإنسان
ألى سوى حُفرةٍ سينتهي مسيرُك ؟!
لديك مبرراتك ؟!
لكنك تهيمُ على وجهك كالمفجوع مسعوراً !!
تخافُ أن يداهمَكَ الموتُ ولم تنل ما وسِعَكَ من دنياك ؟!
رويدك .. رويدك ..
مع إطلالةِ كلِّ يومٍ
يغيّبُ عنكَ ما في سابقهِ أمْضَيْتِ
فما بالك وأنتِ تراباً قد أُمْسَيْتِ ..!

أَيُّ نَفْعٍ سَيَنُوبُكَ مِمَّا قَطَفْتَ مِنَ الدُّنْيَا وَجَنَيْتَ ..!
فَسِرْ فِي الْحَيَاةِ عَلَى مَهْلِكٍ بَاتِزَانٍ
سَعِيداً بِقَوْتِ يَوْمِكَ
وَبِأَحَبَّةِ وَخَلَّانٍ
وَرَوْحٍ عَنِ نَفْسِكَ بَيْنَ آنٍ وَآنٍ
فِي أَحْضَانِ هَضَابٍ
وَوُديَانِ

الأَرْضُ ..
أُمُّنا الْبَدِيعَةُ
أُمُّنا الطَّيِّبَةُ ..
نَشْوُهُهَا .. تَتَغَاظِي !
نَدْمَرُهَا .. تَصْفَح !
نَقْتُلُ .. تَبْكِي ..
أَمَّا أَنْ لَنَا أَنْ نَكْفَّ عَنْ غِبَائِنَا
فَنَرَأَفَ بِأُمِّنا
أَرْضِنَا الطَّيِّبَةَ !!

إِلَهِى ..
حِينَ تَتَنَاهَى إِلَى أَنْبَاءِ الْبَشَرِ
أَتَضَاعِلُ .. وَأَتَضَاعِلُ ..
خَجَلاً وَحَيَاءً مِنْكَ !

هَبَّةُ الكَرِيمِ
دُرَّةُ مَكْنُونَةٍ
كَنْزٌ عَمِيمٌ ..
آيُّ جَمَالٍ تَجَلَّتْ
رَوْضاً مِنْ نَعِيمٍ ..
إِنهَا رِيْمٌ
نُورٌ تَبَدَّأَ
أَحَالَ حُلُكَةَ الْمَدَى
ضِيَاءً .. سَنَا ..
أَنْبَتَ الْقَفَرَ نَخْلاً
سَرَبَلَ وَجْدَانِي هُنَا

- حُورِيَّتِي .. تَعَالِي مَعِي
- وَبِحَارِي .. أَهْجِرْهَا ؟!
- تَقْررين بَعْدَهَا .
حَمَلَهَا عَلَى سَاعِدِيهِ
وَسَرَى بِهَا ..
- هَذَا حَقُولِي .. تِلْكَ مَرْوَجِي ..
- يَا لِرَوْعَتِهَا !!
حَالَتِ الْحُورِيَّةُ
صَارَ لَهَا سَاقَانِ جَمِيلَتَانِ
هَامَتِ بِالسَّهْوِ وَالْهَضَابِ وَالْوَدْيَانِ
وَأَثَرَتْ
هَجَرَ كَهَوفَ اللَّوْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ

ما إن أودَّعُها
وأغلقُ السَّمَاعَةَ
أشتهي فنجان قهوة
أحضّرُه
وأشعلُ سيجارة !

عند السَّحَرِ
رسمتُ لوحة
من ربّي .. ويمامٍ .. ومطرٍ ..
جلستُ إليها
أرشفُ قهوة ..
إذا بطّيف ريم سارحة
تختال رشيقةً مزهوة
وثبةً في إثر طُفْرة
أيّ نشوة !!

- أَوَاهُ عصفورتنا
حزنٌ لا يني يعتصرنا
عُشّكِ لا تبرحين !
حُلْمٌ لا يني يراودنا
تَرْقِيْنِ .. نُحَلِّقِيْنِ
الأجواء تجوبين
ليتكِ حُلْمُنَا نُحَقِّقِيْنِ .
- أَوَاهُ عليكم !
من عُشّي هذا
أرى ما لا ترون

ببصيرتي أجوبُ الآفاقَ البعيدة
أزورُ الكواكبَ والنجومَ
أرى نفوسكم أكثرَ ممّا ترونُ
يا ليتكم لا تحزنونُ

كلّما أمتعتني قراءة
كلّما داعبتني نسماتُ رطيبة
كلّما رَعَشَ قلبي لأغنية
كلّما انسابت فيّ ألحانُ شجيّة
تمنيْتُ لو كنّا معاً
سويّة

نجم :
ألا أقبل إليّ يا قمر
القمر :
يتلاشى عنك ضيائي إن أنا أتيت
ألا أقبل أنت إليّ
النجم :
يأفل عنك بريقي إن أنا فعلت .
آثرا البقاء كلّ في مكانه
قمرٌ ينير .. ونجمٌ يلمع
رغمَ توقٍ موارٍ في كليهما
للانصهار الأبديّ في الآخر

عصفورتي ..
أسمَعك تغردين لي منادية
وأعي أنك سئمت أيامك الباردة
وأنتك تلتَمسين دفء جناحي
ورفقتي الدائمة..
وكلانا يلوبُ نزقاً
من أسلاك شائكة
باحثاً عن فرجةٍ سانحة..
أسأل الله قوةً خارقة
لألوي تلك الأسلاك الجائرة
وأحملك معي إلى عُشِّ لنا
تُظِلّه دوحة وارفة

وصوتك يُمطرُ الحنان
تسألين عني في كل آن
ويحي ..
كيف أبالي
بما بي
من كدرٍ وأحزان
ويحي ..
كيف أبالي ..!
وبك أكرمني
إلهي الرحمن !

ما أصابوا إذ قالوا
إنك رمز الجمال
ما أصابوا إذ قالوا
إنك ينبوع الفضيلة
أنت الجمال
أنت الفضيلة
فأي ثراء بعدُ أرتجي
وقد اصطفتيني
لك مؤناً
دون البرية

ينعكس النور
من الأشياء إلى العين
فتتبدأ الصّور
لكن شعاعاً
من عينيّ
نفذ إلى عينيها
عاكساً
جمالاً في خفر

في ليلةٍ شتائيةٍ
باردةٍ .. حالكَةٌ
والناسُ يلوذون ببيوتهم
مُسَمَّرِينَ أَمَامَ شاشاتهم الصغيرةَ
أطلَّ عليهم قمرٌ إنسيٌّ
نورَ ليلهم بهالةٍ أخَّاذةٍ ساحرةٍ
ثم راح بكلماته المُنثالةِ
مِن فِيهِ الجميلِ
يُدْفِئُ نفوسَهُم
يؤنسُ أرواحهم ..
تعلقتُ به العيون كما القلوب
أحبّه الصغارُ كما الكبار ، لكن
سرعان ما ودّعهم
قالوا :
ليتك بقيتَ معنا
ليتك تعودُ
كلَّ ليلةٍ
يا قمر

مُذْ شَاهِدَهَا
دُونُ أَنْ تَرَاهُ
وَاسْتَمِعْ إِلَيْهَا تَتَحَدَّثُ
دُونُ أَنْ تَدْرِي بِهِ
أَحْسَنْ أَنَّهَا بَعْضُ مَنْهُ .
مَذْ قَرَأْتُهُ ثُمَّ تَحَدَّثْتُ إِلَيْهِ
أَحْسَنْتُ أَنَّهُ بَعْضُ مَنْهَا .
سَرَّعَانِ مَا رَأَى كُلُّ مَنْهُمَا
الْآخَرَ تَوَآمَهُ ..
رَاحَا يَتَنَادِيَانِ .. يَتَنَادِيَانِ
يَتَنَادِيَانِ ..
وَإِذَا بَبْرَزَخَ بَيْنَهُمَا
لَا يَبْغِيَانِ !!

سَاعَةٌ هَجَعْتِي
تَنْسَابُ عَصَارَةٌ كَلِمَاتُكَ فِي ذَاكَرْتِي
جَدُولًا صَافِيًا .. فَضِيًّا
عَلَى رَقْرَقَتِهِ أَكَادُ أَغْفُو
حَالَمًا .. هَنِيًّا ..
وَإِذْ بِهِ فِيَّ
تَيَّارُ يَسْرِي
دَاهِمًا .. هَائِمًا .. عَتِيًّا
يُرُومُ مَصْبَهُ الْبَحْرِيِّ
يَفْنِيهِ .. أَوْ
يَفْنِينِي
مُسْهَدًا أَسِيًّا !

خلف التلال
في مدينة البحر
زنبقة..
تأبى الذبول
متفتحة عِقة ..
تغالب متفانية
رياحاً وأعاصير عاتية ..
عبر المدى تبثني
نفحاتٍ من شذاها
صباحي ومسائي ..
تخبّي رحيقها
تنتظر قدومي
لِتسقيني معتقاً
وتملأني عافية..
من قال إنّ وحدتي قاتلة !
خلف التلال
في مدينة البحر
زنبقة..
تأبى الذبول
لَمَّا تزل
تنتظرني راسية

كلما سامرتُ طيفكِ
عاتبني القمر ..
كلما ناديتُ اسمك
تأوّد الورد .. وماسَ الشجر ..
كم من نجمٍ ينبثق
إذا ما ضمّتك ذراعاي
وقتَ السحر ؟!

أوراقٌ ظليلة
ألوذُ بها ساعاتِ الحرِّ العصبية
لحفيها هدهدٌ تفعمني سكونة
لرّعاتها نسيمٌ نديّ
لخلجاتها لحنٌ شجيّ ..
إنها أوراقٌ واحتى
تلك الفريدة

رتّانُ
هنّ لي من جوالها
كل صباحٍ
همستانُ ..
كل مساءٍ
لمستانُ ..
يهفو الفؤادُ لهنّ
يدقُّ .. يدقُّ
راعشاً لهما

بُعِيدَ كُلِّ وداع
أُتَشَتَّتْ
أَلُوبُ
أَهِيْمُ
فِي دُنْيَى لَا زَوْرِدِيَّةَ
مِنْ سَدِيمِ
ثُمَّ أَحْطَّ آيِباً
عَلَى الْوَاقِعِ الْمَرِّ الْأَلِيمِ ..
لَكِنَّ يَوْمًا لَا بَدَّ قَرِيبِ
بُعِيدَ كُلِّ وداع
لَنْ أُتَشَتَّتْ
لَنْ أَلُوبُ
لَنْ أَهِيْمُ
سَأَعُودُ لِحُضْنِ
الْعُشِّ الْحَمِيمِ

بذورنا التي خَبَأْنَا
فِي تَرْبَةِ الزَّمَانِ
إِنْ هِيَ تَفْتَحُ يَوْمًا
وَرُودًا طَالَمَا انْتَظَرْنَاهَا
سُتُضْحِي وَرُودًا شَدِيدَةً
نُسْرُ بِمَرَاهَا
تَبْهَجُنَا مَعَ كُلِّ شُرُوقٍ
بَوْلَادَةٍ بِرَعْمٍ وَاعِدٍ
بَطِيبِ مَخْيَانَا

كلما توفاني الله ليلاً
تحوّر روعي فراشةً بهيَّة
تعبر الأمداء القصية
لتنسّد ثمة
شعرك الشذي
وتؤوب فجراً
إليّ

مهما نظرتُ لا أرتوي
من عينيك الحالمتين
اللّتين يوماً
كم همتُ بهما
نزقتين ..
مهما نهلتُ لا أشبع
من الرّيانتين الكرزيتين
يا لهما من مُسكرتين !!
لا مُلهمتي
ليس الذي تصورتِ قصدتُ
فذاك لمّا يزل
حلْمِي الجميل .. بعيدَ المنال ..
مهما نهلتُ لا أشبع
من حلو الكلام الناعم الطلي
ينسابُ من شفّتكِ
ترانيمَ عبر الأثير آتية ..
ذاك ما عنيت

إِثْرَ مَطْرَةٍ سَخِيَّةٍ
عِنْدَ مُنْتَصَفِ لَيْلَةٍ صَيْفِيَّةٍ
دَنْتُ مِنْ نَافِذَتِهَا فِي الْعَتَمَةِ
تَسْتَنْشِي نَشْوَانَهُ هَنِيئَةً
أُرِيحُ الْأَرْضَ الْمُخْضَلَّةَ
يَتَضَوّعُ فِي الْأَرْجَاءِ النَّدِيَّةِ ..
وَإِذَا ذِرَاعَاهُ يَبَاغِتَانِهَا
يَطْوِقَانِ بَرَفِي خَصْرَهَا ..
وَإِذَا شَفَتَاهُ
تَمَسَّانِ بِتَحْنَانٍ
عُنُقَهَا ..
وَإِذَا بِالسَّحَابِ انْفَطَرُ
لِيَطُلَّ وَجْهُ الْقَمَرِ
مَسْرَبِلًا نَوْرَهُ زَوْجَيْنِ وَلِيَفِينِ
وَشَاحًا شَفِيفًا مِنْ لَجِينِ ..
وَادَعَةً .. مُسْتَكِينَةً
عَظَفْتُ عَنْقَهَا
نَازِرَةً إِلَيْهِ ..
وَإِذَا الْعَيُونَ
لَامَعَاتٍ قَرِيرَاتٍ
فِي بَعْضِهِنَّ سَابِحَاتٍ
بِرُضًى وَهْنَاءٍ بَائِحَاتٍ ..
لَوْحَةً بَدِيعَةً كَانَتْ
مُبَارَكَةً
مِنْ رَبِّ السَّمَاوَاتِ

في أمسيةٍ مقمرةٍ صيفيّةٍ
حول بركةٍ
على صفحةٍ مائها الشفيف تطفو
صنوف الزهر والورد
بألوانها الزاهية
راقصةً على موجاتٍ نافورةٍ لاغيةٍ ..
بهرتنا ببديع زخارفها
تلك الدار العربية الحليّة الأصيلّة
تضمّنا إليها كأننا
أشقاء ما في صحنها
من قُلٍّ وريحان
وقرنفلٍ وأقحوان ..
لكنّا
سرعان ما تحوّلنا عنها
إلى التي انبثقت
من إحدى زواياها
وراحت تحدثنا ..
فنسينا المكان والزمان
مُصغين إليها .. مأخوذين بها
في حلّتها الليلية ..
بنفسجةٍ كانت ولا أحلى
تلك الريمّ الهلالية

- تعالي ..
تعالي نستحم سوياً
- !!
- يا لحيائك ملهمتي
لا.. كلاً !!
ليس الذي تصورتِ عنيتُ
أن نغسلَ روحينا
من شوائبِ ما فاتَ من سنين
ذاك ما إليه رميت

سكونُ ليلٍ
ونؤسُ أنغام ..
بقعةُ ضوءٍ على منضدة ..
أوراقُ مبعثرة
كتابُ صفحاته مشرعة
فجاننا شاي فارغان
إلا من ثُمالة
نورٌ ينسأخُ واهناً
من كوةٍ مدفأة ..
وفي الركنِ الدفيء
روحان انزوتا
في عبادة

حينما يسحرني بهاء الطبيعة
حينما تأسّرني عظمة الفضيلة
حينما تغتبطُ نفسي بالذي
يرقى إلى الكمال
إليك يسمو
ملهمتي
بي الخيال

بكلماتنا الموحية
على مدى سنين ثلاث
كم تعانقنا
كما ولا أجمل
إلى أن همستها
لأول مرّة
عبر الأثير مودّعة
" عانقني "
آه .. آه
كم بها رسّخت فيّ
حقيقة حبّك الأمثل
كم بها أحسستُ
نشوة حبّ
تجدّد

- في كلّ حينٍ
أناديكُ
عبر المسافات
أناديكُ
يا ضياءَ دربيّ الصّباحي
وأنوارَ سكّيتي المسائيّة ..

- ناديني .. نادي
من على الشرفّة البعيدة
نادي ..
ما بوسع طيرٍ أقصوهُ عن وليفه
سوى أن ينادي ..
نادي .. وأُنادي
لعلّ الزمان
بين صبحٍ ومساء
يحنو علينا
مغرّدين
ننادي

أَمَنْ يُصَدِّق
أنه في القرن الحادي والعشرين
قد رأى النور
حُبُّ رجل وامرأة
يكبرُ سنة إثرَ سنة
مترفعاً عن كلِّ غاية ؟
لا.. ليس بوهْمٍ ولا خرافة
إنه حُبُّ رجلٍ في الخمسين
لامرأةٍ في الأربعين
حُبُّ ليس باعته جسدان جامحان
ولا عقْلانِ يحسبان
بل روحان متوائمتان
حُبُّ جاوز الحُبَّ
إلى عالمٍ أرحب
عالمِ المحبَّة الأشمل
حُبُّ.. أين منه
روميو وجولييت ..
إنه حُبُّ صادقٍ لريم
وريمٍ لصادق
فإن كان الأولان
عانيا ما عانيا
فإن الآخرين
مازالا يكابدان ..
لعلهما يوماً
يلتقيان

لئن كان نزار
قد قالت له السمراء
فأنا قد قالت لي البيضاء..
وهل يستوي ما في السماوات
وما في الأرض !

أُتِراهُ شَعْبٌ أَنْ تَسْتَكِينَ قَطَّتِي
لَشَعْبٍ مُلَامَسْتِي رِيثَهَا الْأَبْيَضُ
فَتَلَامَسْنِي بِكُلِّ رَفَقٍ !
أُتِراهُ شَعْبٌ
- كما ترى -
أَنْ شَفَّتِيهَا
لَا مَسْتَ يَدِي !
إِنْ لَمْ تَعُدْ قَطَّتِي الْبَيْضَاءُ
تَرَى نَفْسَهَا
مِثَالَ طَالِبَةِ الْمَدْرَسَةِ
الْهَادئةِ الْمُتَعَقِّلَةِ
فَقَدْ أُمَسْتُ
مِثَالَ الْحَبِيبَةِ
الْحَيَّةِ الْمُتَأَنِّئَةِ

سجّانتي الحانية
إن فككت أسري
في أيام ليّتها ليست قادمة
يا لي من تائه
حينها

أرى إلى أصابع يديك
تتقر مفاتيح الآلة الكاتبة
كما لو كنت أرى إلى
طائرين أبيضين
يتلقّان الحبّ
في خفّة .. متجاورين
فأودّ لو أضَمَّهما معاً
بين يديّ
رئيفاً .. حانياً ..
ترى لو هممت
هل يستكينان ؟
لو أدنيتُ شفّتي
للمسة كالهمس
أما يفزعان ؟
أما يفرّان ؟

ما أبهاك على المنبر
رزاناً رصينة
تحاضرين أمام ناظريّ
فإذا بك كائنٌ قدسيّ
تعشقه الأذن والعين
وتركُن الروح
خاشعةً إليه .
ويسرُحُ بي الخيال
يتمثلك
بشراً سوياً
متماهية فيّ
تذوبين نشوى
بين يديّ ..

بنبرات واثقة
ترينني للصدق إماماً
وللثقة صرحاً آمناً ..
لسنين ولازلت
تُرجين لي حبك خالصاً ..
واليوم
تُشيدين بي عظيماً !!
إن طوعتُ الأقدارَ تنأى بي عنك يوماً
أيُّ جاحدٍ أكون
أيُّ أفاكٍ أكون

أغنيةٌ من الأغنياتِ أنتِ !
قصيدةٌ
ترنيمةٌ
سمفونيةٌ.. أنتِ !
هدفةٌ
ترتيلةٌ كنسيّةٌ
أذانٌ فجرٍ.. أنتِ !
أنّى من دونكِ أستكين
كيف لروحي
إليكِ لا تصبو
في كلّ حين

منفعةٌ قاطعتني :
" لا تصفُ نفسك
إنك تُبجسُها حقّها
دعني أنا أصفها "
علّقتِ على صدري
وسامَ الاستحقاق من الدرجة الأولى
وألبيتني وشاحَ الإنسانيةِ الأعلى ..
أذهلني الحدّ الذي سبّرتِ في عمقِ أعماقي
إذ لم يصله قبلكِ سوى أمّي !
طوبى لي بكِ حبيبةً
لعلّ الله يأذن يوماً
فتكوني
شريكةً لحياتي

يا من شوقي لرفيع أدبها لا يريم
يا من توقي لسحر عالمها لا يغم ..
يا من حنيني لعذب صوتها لا يستكين
صمتك ليوم أخاله هجران سنين
أما يكفي البعاد جوراً ..
كي تأبهي لحال مسكين !..

اضمحلّت ألوانُ حياتي
عادت حُلُكُهُ أَيَّامِي
تبدّدت أحلامُ سنين
امتنالاً لقدرٍ قاسٍ
لا بدّ بنا رحيم ..
لن نشربَ قهوةَ الصباح معاً
لن ننعمَ سميرين معاً
بنسماتِ المساء
لن نكونَ معاً على مائدةِ العشاء
لن ندفاً لصيقين أيام الشتاء
لن نسمعَ الموسيقى معاً
لن نقرأ معاً
لن نصلي معاً
امتنالاً لقدرٍ قاسٍ
لا بدّ بنا رحيم ..
بيدَ أنا
سنبقى أبداً
وليفين روحاً
أسمعُك وتسمعيني
كل يوم .. لكن
من بعيد

قحطٌ وجفافٌ
أنينٌ وموتٌ ونحيبٌ
يا لليوم العصيبُ !
وإذا بقبرةٌ
تحطُّ على نافذةٍ
هائمةً لائبةً باحثةً
عن حبةٍ أو بذرةٍ شاردةٍ أو ماءٍ ساربةٍ !
أتاها إذ رآها بنثرةٍ بُرٍّ
وطبقٍ ماءٍ ممّا ادّخرُ
غرّدت أغرودةً عذبةً شاكرةً
ثم رفرفت مغادرةً ..
تتالت أيامٌ على ذاتِ الشاكلةِ
فما من حبةٍ أو قطرةٍ ماءٍ باتت لديةٍ
فكانَ حالها كحالهُ
يسيران نحو هلاكٍ لا محالةٍ
لكنها غيرَ متوانيةٍ
واظبت على زيارتهِ
تشدو له مغرّدة
عيّةً منهكةً.. غير أبهةٍ بما فيها من مَسْغَبَةٍ ..
حتى كان صباح
أنت في موعدها إليه .. غرّدت وشَدَّتْ
حتى انهدتْ في الزاويةِ
مُسْلِمةً روحها مع تغريدةٍ متناهيةٍ ..
هناك في الأعالي
لا بدّ أنهما وليفان
في عيشةٍ هائلةٍ

شقيقتان
من شقائق النعمان
بصيرتان
الشمس تُضاحكان
القمر ثُباسِمان..
مِياستان
ببعضهما دفيئتان..
شقيقتان
صفيتان
بصيرتان
كنارانِ أبيضان
لا يألوانِ لصيقين يرقّان
يُغرّدان
آلاءِ ربّهما
يُرْتَلّان..
رِيمان .. رَفيفان

لِلَّتِي بَيْنَ حَيْنٍ وَحَيْنٍ
عَبَرَ شَقِيقَةَ الرُّوحِ
أَلْقَى طَيْبَ مُحَبَّتِهَا..
لِرَفِيفٍ
مِنْ جُنِينَةِ نَفْسِي
أَقْطَفَ زَنْبَقَةَ

رَفِيفُ تَرْفُ
تَحْيِينِي ..
فِيرْفُ قَلْبِي
يَحْيِيهَا ..
هِيَ لِي أُخْتُ
وَأَنَا لَهَا أُخْ
يَا لِأَخَوَاتِنَا .. مَا أَحْلَاهَا !

وَقْتُ اللَّيْلِ خَلَصَ الْحَكِي
وَدَّعْتَنِي وَهَمَسْتُ :
بَاي
يَايَ عَهَاكَ الْبَاي
وَلَا بَحَّةَ نَاي !!..
لَوْ تَعْرِفُوا شَوْ عَمَلْتُ فِيِّي
كَرَكِبْتَنِي .. شَلَّتْنِي ..
خَلَّتْ بَايْدِي السَّمَاعَةَ مَعْلَقَهُ
وَرُوحِي بَيْنَ ضِلَاعِي الْبِرْدَانِهِ
مَلَّوْعَهُ .. مَطَّوْحَهُ
مَا عَارَفَهُ كَيْفَ تَرْجِعُ
لِمَطْرَحَا

أطربني صوتها
وأنا فتى
يوم كان العناقُ
بالإمكان
وما كان
حتى طواه الزمانُ ..
ثم عادَ وأنا كهلاً
فأسكرني ..
سائلاً الحبَّ والحنانُ
متوهماً أن لم يعد ممكناً
ما كان بالإمكان !

يا غصوناً تنوئينَ
ببائعِ الثمرِ
تأبينَ التواءِ
وقد طابَ منكِ الحبُّ
واختمرَ !
لمَ الضنَّ على الداني
وقد تغيَّك زماناً
يرومُ شذاكِ
كلَّ سحرٍ ؟!

لَحَظَاتُ سَعَادَتِي الْعَارِمَةِ
فِي مَحَطَّاتِ أَعْوَامِي الْخَمْسِينَ
ثَلَاثَ لَا رَابِعَ لَهَا :
أَصَيَافُ بَحْرِيَّةٍ
أُنْدَتِ طِفُولَتِي وَبِفَاعَتِي
بَيْنَ أُسْرَةٍ خَالَتِي الْحَاتِمِيَّةِ ..
غَفَوَاتُ وَرْدِيَّةٍ لِأُطْفَالِي .. أَيَّامُ شَبَابِي
عَلَى رَكْبَتِي ..
صَوْتُ رَقِيقٍ نَاسَمَ سَمْعِي
فَآنَسَ كَهُولَتِي
مِنْ حُورِيَّةٍ بَحْرِيَّةٍ

نَأْتِ الْأَقْدَارُ بِكُمْ
هَمْسَتِي .. دِيْمَتِي .. نَاطِمِي ..
فَزَادَتْ أَيَّامِي جَفَافاً وَقَسَاوَةً ..
أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْلُوَ الْعَمَامَةَ
وَأَنْ يَحَقِّقَ مَا تَصْبُو إِلَيْهِ نَفُوسُكُمْ الْفَتِيَّةُ الطَّيِّبَةُ ..
أَعَانِقُكُمْ أَحِبَابِي ..
عَنَاقَ أَبِي قَدْ أَثْقَلَ شَوْقُهُ إِلَيْكُمْ كَاهِلَهُ
وَأَقْضَ مَضْجَعَهُ الْحَنِينِ ..
وَالْتِمَ وَجَنَاتِكُمْ فَرَحاً
بَلْقَاءِ كُلِّ مِنْكُمْ
بَوْلِيفِ الْعَمْرِ الْخُلُوقِ الْأَمِينِ

تمرّ السنين على رحيلك أبي
ويبقى طيفك الجميل
ينيرُ جنباتِ نفسي ..
أفتقد قبلاتك تتلاحق
على وجنتي أبي
أسأل الله أن نلتقي
في جنان الخلد
أبي

ر حلتِ شمسَ حياتي .. فحالت أيامي صقيعاً
كم أفتقد صوتك الواهن أُمي
يناديني .. بين فينة وفينة
سائلاً رشفة ماء ..
كم أفتقد دعاءك لي أُمي
ينبع من صميم قلبك الطيب النقي ..
لن تفيَ كلماتي .. أُمي .. مهما عظمت وأبانت
ما أغدقت عليّ وأخويّ
من عصارة حنانك .. ودفء مشاعرك ..
ولن يفيَ عرفاني أُمي
ما رُقته لنا سيلاً من عافيتك ..
أسأل الله أن نلتقي
في جنان الخلد
أُمي

**

* * * *

**



{ أمي وأبي 1980 }

وأنا أُنْتَقِلُ في هذا الكتاب، ما بين صفحات الضوء الأبيض، متمثلةً في ارتقاء الأسلوب وبراعة الغوص حتى اللآلئ وامتانة الخيوط الحريية في كل نص من بدايته إلى نهايته، مضافاً إلى ذلك كله نقاء الروح وسمو الخلق ورهافة الحس الإنساني؛ كم آسفٌ لكون مؤلفه لم يُصنّف ذات يوم واحداً من كبار الأدباء، برغم أنه يضاهي الكثيرين منهم كما يتجلى لي، أو يفوقهم في مدارجه التي ببسرٍ وعفويةٍ قد علاها ! إنه حقاً تقاعسُ أديبنا هذا عن النشر إلى سنّ السبعين التي هو الآن فيها، تقاعسه في المثابرة على المزيد والمزيد من غمس قلمه في ينبوع مداده الأزهر.

صادق السباعي .. يتيم كتابك هذا، ويتيمة ترجمتك البديعة لإحدى الروايات الأمريكية إلى العربية، لكن لعلهما يخطآن اسمك يوماً، أديباً مرموقاً على جدران الأبد، كما شأن بعض أدباء العالم الذين عرفت العصور كل واحدٍ منهم من كتابه الأوحـد .
أ.د. ريم هلال

* * *



المحتوى ..

الإهداء	٢
مقدمة	٣
قصص :	
وردة	٥
معاً تحت مظلة واحدة	٢٣
تلك الهالة	٣٦
دعوة إلى العشاء	٥٣
سوانح	٥٥
خواطر	١١٤